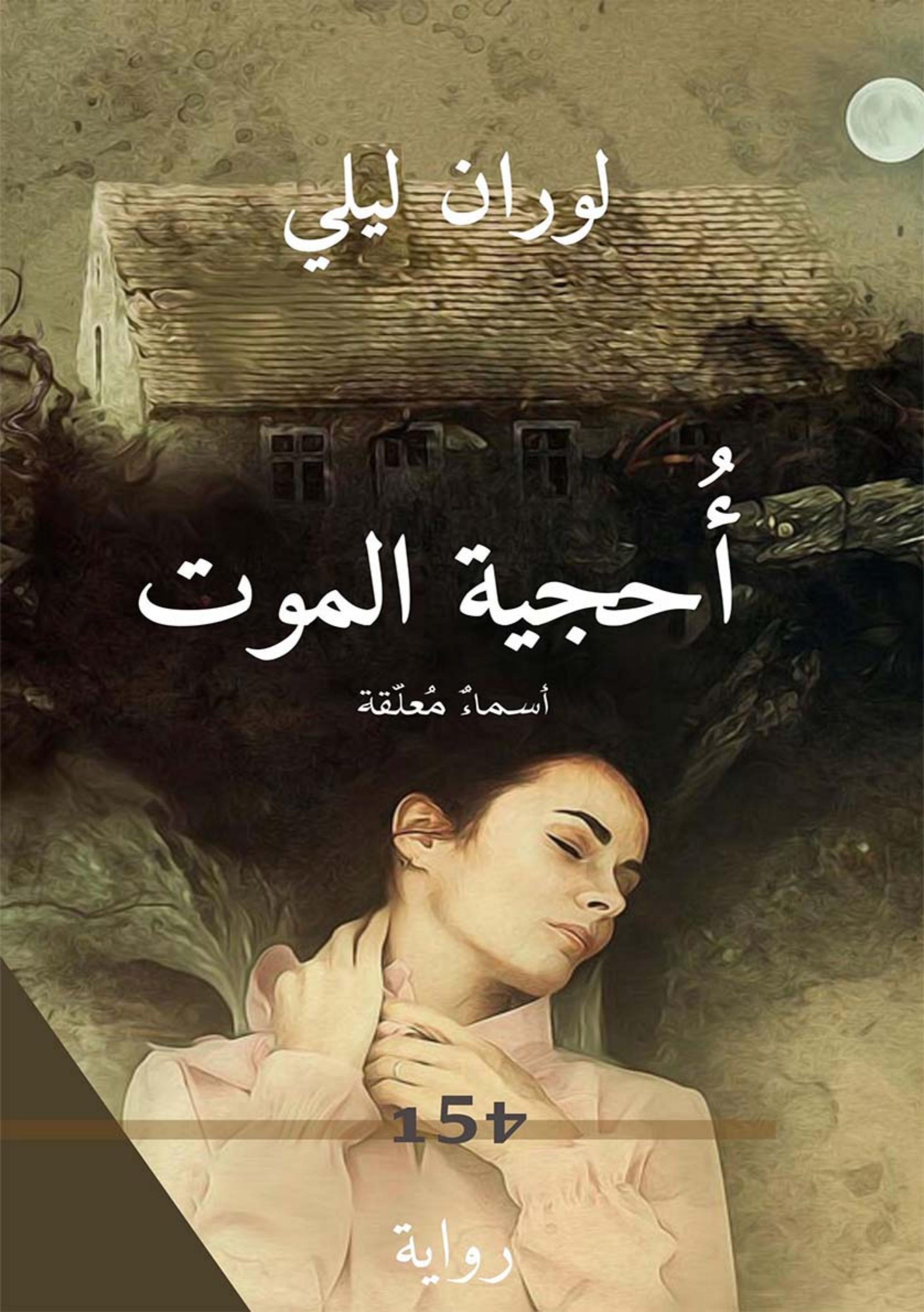

لوران ليلي

أُحجية الموت

أسماءٌ مُعلّقة

+15

رواية

أُحجية الموت

أُحجية الموت

- أسماءٌ مُعلّقة-

لوران ليلي

أحجية الموت

لوران ليلي
الناشر: دار نفرتيتي للنشر
دار شلير للطباعة والنشر
الطبعة الأولى: سوريا، القامشلي ٢٠٢٢
الطبعة الثانية: مصر، القاهرة ٢٠٢٣
رقم الإيداع: ٢٧١٧٩ / ٢٠٢٢ م
الترقيم الدولي: ٣- ٢٧ - ٦٨٦٥ - ٩٧٧ - ٩٧٨
تصميم فني: زارا محمد
الغلاف: لوران ليلي
الإشراف العام: السيد عبد الفتاح
الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر
وجميع الحقوق محفوظة

رقم الهاتف: ٠١١٤٨٨٥٢٦٦٨
العنوان: ١٨ شارع ضريح سعد – القاهرة
البريد الإلكتروني: nefertitipst@gmail.com

9 789776 865273

إلى الموتى الذين عبروا
هذهِ الحياة مُصادفةً

"معرفة الأسماء تؤدي إلى معرفة الأشياء"

أفلاطون

اليوم الأول – ٣ أبريل ١٨٨٠
الساعة الخامسة صباحاً

أُحجية الموت

نهار ربيعيّ مشرق أطلّ باكرا في ذلك اليوم، والأرصفة تحتفي بخطوات عابري السبيل الماضين إلى تلك الحياة بدون هدف.

بيوتٌ عشوائية طينية تمتد على مسافة الطريق، وأعشاب صغيرة مُزعجة تنمو على أسقف تلك المنازل، وحصى مُبعثرة مُمزوجة مع الوحل، شكلت مُعظمها مُستنقعا صغيرا خاليا من المياه التي تُسيطر أغلبها بين أزقة المنازل في تلك الجهة من الحي كلّما هطلت الأمطار، إذ يكون المطر الجحيم الوحيد على الأرض بالنسبة لهم.

في الجهة الأخرى بُنيتْ منازل رُخامية فاخرة، مُقسمة إلى أشكال مُتلاصقة، تحمل البعض منها لوحات معدنية ثقيلة زُخرفت عليها بعض الأسماء لسكان ذلك الحي، وزهور الأقحوان البيضاء أضاءت طريقها مُنتشية على أطراف الأرصفة التي تبرحُ مكانها منذُ الأزل، وأشجارٌ مُنتصبة في تناسق أمام كل باب، تنبعثُ من بين أغصانها رائحة الياسمين، نحت عليها المارون باقة من الذكريات بالمفاتيح المعدنية، تجرحُ قشرتها الضامرة، لتتبنى تلك الكلمات والحروف وتصير جزءا منها.

خلف ذلك المقهى الفاخر مباشرةً، الذي ذاع صيته في المدينة، أشغل إمران الطالب في كلية العلوم تلك الحجرة الصغيرة، التي كانت تحوي سريرا خشبيا لا يكاد يقوى على حمله، وطاولة صغيرة تطل على النافذة؛ تحمل بعض الأقلام وكرّاسات الأبحاث التي كان يجريها في

جامعة العلوم؛ تحتها كانت هناك سجادة صوفية قديمة وعليها بعض الكُتب والروايات التي التأمتْ عليها الأحاديث طيلة السنوات الماضية، وحقيبة قماشية بُنية اللون انشرمَ قماشها بفعل الزمن.

عُلقت صورة لصباه مع صديقه الوحيد عمر على حائطه الأيسر، كانت تلك الصورة منذ قرابة خمسة عشر عاما، حتى أن الغبار سطا على تلك الصورة، لكل سنتمتر عامٌ كامل، بجانبها لوحة مطرزة من القماش تتألف من منازل ريفية خشبية، تجلسُ أمام إحداها عجوز تحملُ سيخين من المعدن وبيدها كومة من القطن تحيكها، لتصنع منها ثيابا تغطي عورة القرويين بها؛ على يسار ذلك الباب الخشبي، كانت خزانته المعدنية لم تبرحُ مكانها، ترك الشتاء بصمته عليها، كان قميصه البني المُخطط بإتقان مُعلقا على مسمار طويل، تعتصر قبّة ذلك القميص وكأن الأيام سيسرقه منه.

على تلك الطاولة التي تطل على أبجدية الحياة، قبع إمران وعيناه تغوصان في أعماق الظلمة، تلك التي بدت له وكأنها جحيمٌ فارغ تلعبُ فيها صغار الشياطين كلّما أتيحت لهم فرصة نجاة من السماء.

ينظرُ إمران إلى الشارع مجدداً، حيث فرشت الغيوم ظلالها على تلك الأحجار التي فقدت روحها منذُ سنين، لتبزُغ الشمس بعد وقت قصير، خلف تلك الغيوم المُبعثرة في السماء وتشكل غطاءً بسلاسلها الصفراء على تلك الظلال العارية؛ لم يكن إمران يدرس في ذلك الوقت، بل كان

يعد الساعات، كعد صفحات رواية قديمة مزقها الكاتب بحكايته الشرسة، لتكون لقمةً كبيرة في حنجرة القارئين.

الأم كانت غارقة في أحلامها منذُ ساعات، تفتح عينيها الزرقاوين في الساعة السابعة صباحا، وتشد اللحاف فوق رأسها مرة أخرى وتمضي في نوم عميق، لتتسلل نسمات الهواء الباردة في ذلك الصباح إلى رئتيها، وتستنشقها بعمق، كأنها تحاول أن تشبع روحها من تلك الأنفاس التي بدت لها أنها الأخيرة في حياتها.

يتملكه القلق على ذلك الكرسي الخشبي، فتنخرط أفكاره مع الوجل المُبكر، ليهب من حدّة النعاس ويتساءل:

- إلى أين سأذهب بهذه الحياة!

كان طالبا مُجتهدا، يدرس مواده العلمية لساعات، وكأنما يدرس صفحات من حياته اليومية، حتى تفوق على زملائه في السنة الأولى بعد الفصل الأول، لتكرمه الجامعة وتُعلق صورته بين المفتوقين على تلك اللوحة الخشبية في ممر الجامعة، التي رُسمت عليها أشكالا مُضحكة تظهر سخرية من المتفوقين على أولئك الطلاب، الذين عصفتهم رياح الفشل وهم جالسون على كومة من الرماد.

لم تقتحم غيومه سماء الآخرين، فقد كان مُنعزلا عن الحياة الاجتماعية؛ بعض الطلاب حاولوا الاقتراب منه وعرضوا عليه الصداقة، والبعض أصبحوا يستهزئون به لثيابه الفقيرة، ولحذائه المهترئ؛ لم يكن يملك من

المال شيئا، فقد نهش الفقر عظامه مثلما ينهش حيوان بري جسد فريسته دون رحمة.

صوت أقدام أبيه تسحبه من تسلسل تخيلاته اللاذعة. ينظرُ إلى الباب، ويرى رأس أبيه مُمتدا بهدوء وفي عينيه ابتسامة مطمئنة. يقول في مُجافاة:

- أهلا أبي.

رمقه بنظرة من عينيه الكئيبتين.

- أراك متعبا؟

التفت إلى طاولته دون أن ينبس بكلمة.

- عجيب! الطالب النشيط لم يكن يدرس لهذا الوقت!

كانت مُخيلته ترنو به إلى السماء، ليتردّى مُجدداً في تلك البحيرة الهاجعة، وتحرك تلك المياه الراكدة في قلبه.

- أحقا! لقد أخذت كفايتي من الدراسة، لم استيقظت باكرا؟

- سأذهب لأُحضر بعض الخبز كالعادة.

كان حتى ذلك الوقت، يتسابق مع القدر حافي القدمين، همه الوحيد التخرّج والحصول على وظيفة براتب جيد؛ كان يتخطى تلك العوائق، كما تتخطى الطيور قرس الشتاء، مهاجرة إلى بلاد لا تعرفها، إلى أشجار لم تُقابلها، إلى أنهار لم تحظ بالكثير من الأرواح.

منذُ أن اتخذ طريقه نحو الفتاة، أهمل دراسته، وتشتت حياته، وكأن حياته صخرة تُحطم بأياد من الحديد، كلّما أبحر في بصمة الليل بحثا عن السبيل الوحيد إلى قلبها.

يحرك الهواء تلك الستائر المعلقة بهدوء، لتخرجه من تلك الأحلام التي تتحطم سرعان ما أمعن التفكير بها. يمشي مُتعثرا من نُعاسه الشديد إلى الغرفة المجاورة، ليرى أمه جالسة على حصيرة صفراء وأمامها القليل من الصحون، تحتوي على بيضٍ مسلوق مع القليل من الملح عليها تشد النظر بلمعانه، وقطع من الجبن المقطع بسكينٍ حاد، وصحنان متلاصقان كتوأمين لا يفرقهما شيء، تحتوي إحداها الزيت والأخرى الزعتر.

كان الزيت والزعتر بمثابة رمز ديني مقدس في كل منزل في سوريا، إذا دخلت في أي منزل ستجدهما، حتى أنهما صارا جزأين أساسيين من العادات السورية، ربما هم وحدهم من وحّد ألسنة السوريين بمذاقه.

- صباح الخير يا أمي.

- أهلًا بالشقي.

ركزت الأم في هيئته وشعره المجعد، الذي يربط بين الأشياء المُختلطة في ذهنه، وجسده النحيل الذي كَمّ بغشاءٍ واهٍ أجهرَ عن بضع خيوط خضراء مُتاخمة جنب بعضها، بدأ البعض يُلزِبُ بعضاً؛ له وجهٌ مُمحلٌ

لا تنبثُ فيه السعادة، وعينانِ بُنيتان ترى كطائرٍ صغير بين حشد من الغيوم.

دقائق قبل فتح الباب، لبس ثيابه، وحزم حقيبته، وهيأ نفسه للذهاب إلى الجامعة، جلس على يمين أمه، وبدأا يتشاركان بعض الأحاديث عن الجامعة والعمل، كانت الأم تعمل مُعلمة في مدرسة خاصة تدرس الشبّان اللغة الفرنسية، والأب يعمل مُوظفا في إدارة المياه الحكومية الكائنة في الحي الغربي من مدينة القامشلي، التي تقع في شمالي شرق سوريا.

كانت ابتسامته المُصطنعة ترقص على نغمات الحديث وعيناه تُلاحقان عقارب الساعة كلّ خمس دقائق دون قصد.

فُتح الباب، يدخل الأب حاملا حفنة من رائحة الفرن، وعيناه مليئتان بالهموم، كبركان يمسك النار في جوفه حتى لا يفيض، ليثير شهوة فضوله ضجة بداخله:

- ماذا حدث يا أبي؟

رمى جسده أرضا، وكأنه يرمي أُثقالا لم يعد قادرا على حملها، تسرب الحديث من فم زوجته، نبعاً يرفض التوقف.

- تحدث يا ليبراف! أرجوك قل لي ما بك..

تملكه الحزن، وفي صوته رجفة خافتة:

- توفي صديقي.

- من صديقك؟
- ارمس الفرّان، لم أكن أتوقع موته أبدا.
يقول إمران محاولا إخفاء الأسى بين مفرداته:
- ارمس! ومتى توفي؟
- اليوم باكرا، لقد تسمم، يجب أن أذهب إلى هناك، فهو لا يملك أحد سوانا.
- سأذهب معك أيضا.
- لا، يجب أن تذهب إلى الجامعة.
حزم حقيبته برمي الأشياء بداخلها دون أن يكترث لشيء، ليلبس حذائه، ويمضي قدما صوب الجامعة، كان يتملكه الأسى، كامتلاك الفلاح لأرض قاحلة، يزرع فيها بذورا من التعاسة، لتنبت فيها سنبلة صفراء، تسيلُ من بين حبّاتها آهات كقطرات الندى، فينكسر غشاؤها الهشّ تحت مشقة الزمن.
يتمتم تحت حقنة الاستغراب:
- كم هي مصادفة فظيعة، أن يموت في يوم مولده!
حين تجاوز ارمس الخمسين عاما، قرر أن يحتفل بعيد ميلاده كلّ سنة، بتوزيع الخبز مجاناً في هذا اليوم مع باقة من الورود البيضاء وبعض النقود للصغار، حتى أن هذا اليوم أصبح مشهورا في هذا الحي والأحياء المجاورة أيضا، وعندما يسأله أحد عن السبب، كان يقول

مُبتسما "لأنني حي، ولم أمت في هذه السنة أيضا"، ولكن القدر لم يهمله سوى اثني عشر عاما حتى يدعو روحه إلى الموت، وكأن القدر أيضا أراد أن يحتفل معه في هذه السنة.

يمرّ الآن بجانب المقهى، وعيناه تأخذانه إلى مجموعة من الأشخاص واقفين أمام بابِ العجوز، ليحملوا الجنازة إلى مقبرة المدينة التي تبعد قرابة نصف ساعة مشياً؛ كان الفرن والمنزل جزأين من أرضٍ واحدة، ويقعان مباشرةً أمام المقهى في جهة اليسار.

بينما كان يصور تلك المشاهد كفلمٍ سينمائي، اِلتقطتْ عدساته رجُلاً في الخمسينات من العمر كان جالساً على الأرض بين الأعشاب المنتثرة هنا وهناك، ويردد جملة وحيدة على مسامع الآخرين، وكأنه تحت تأثير مخدر من الصدمة "لا أصدق كيف حدث ذلك! لقد رأيته، لم يكن عجوزا كان أقوى مني حتى".

أثار الفضول فوضى في عقله كعاصفة لا تحبذ التوقف، بدأت التساؤلات تجرّ أقدامه إلى الرجل "ماذا يقصد بكلامه! هل هو مختل أم ماذا؟ سأسأله إذا"، جلس على ركبتيه أمامه وبدأ بإشباع فضوله:

- مرحبا! من أنت؟ وماذا تقصد بكلامك هذا؟
- أنا جاره.
- من جاره؟

أشار الرجل بيده إلى مسكنه في الطابق الثاني، فقد كان يسكن في البناء المؤلف من أربع طوابق فوق بعضها، كان البناء ملاصقا للمقهى في جهة اليسرى، أمّا إمران فقد كان يسكن في الجهة اليُمنى، وكان منزله مؤلفا من طابقٍ أرضي واحد. كرر سؤاله:

- وماذا تقصد بكلامك؟

- لقد رأيته، كان منتصب القامة، وكأنه شابٌ في مُنتصف العمر..

- لم أفهم...

- كل يوم أستيقظ في الساعة السابعة والنصف، وعندما أنهض من الفراش، أرى حديقة العجوز، واليوم رأيته، كان في حديقة منزله، واقفا بقوة كبيرة وينظر إلى ساعته، وكأنه يعرف أنه سيموت، ثم مات فجأة ووقع أرضا.

يطرق الاستغراب باب عقله، ليفتحه بقوة، فتلعب به الرياح كورقة صفراء انتزعت من غصن شجرة.

- أعرف أنك لن تصدقني مثل الجميع ولكن هذا ما حدث فعلا.

يقف على أرجله، وعيناه لم تفارقا عين الرجل، وبدأ يبتعد عنه خطوة تلو الأخرى، حتى صار في نهاية الطريق، لم يكن يصدق كلامه مثل الجميع، ولكن الشك قد أخذ حيّزا من التفكير، إذ يتحرك ككُريات خضراء مع دمائه مشكلا مزيج من سائلٍ مُختلط يصعب فصلهما. كان

أرمس عجوزا، فقد تقلص طوله خلال السنوات الماضية، وكان لديه حدبة كبيرة في ظهره، كيف يقول هذا الرجل عكس ذلك؟!

كانت أفكاره غريبة دوما، لم يكن يفكر مثل الآخرين، يحلل الأشياء بطريقة يعجز عن تفسيرها، ويشك في كل شيء، ربما الشك هو طبعه الوحيد الذي لم يفارقه طيلة عشرين سنة، حتى أنه يشك في ساعة غرفته كلّ يوم، فعندما يرى الساعة في السابعة تماما، يعاين مُجدداً الى ساعة يده الموضوعة على طاولته ليتأكد منها، خوفا من توقف الساعة في ذات الدقيقة.

تأخذه الرياح إلى الجامعة، فيمشي في ذات الطريق ويتبع ذات الخطوات، وكأن الخطوات أيضا لديها ذكريات تحاول استرجاعها في كل يوم، حتى وصل إلى تلك الجامعة وتأمل مساحاتها.

كان الباب الحديدي الضخم المرصع بمعدنٍ ثقيل يُفتح في الساعة الثامنة صباحا ويُغلق في الخامسة مساءا، له ممر طويل مؤلف من صخور الرخام الملونة، تزين أطرافها القليل من الزهور الحمراء، تنشق منه عدة ممرات كنهر ينتشر بين الوديان والجبال، وأعشاب خضراء تزين الأراضي الخالية، ومقاعد خشبية مبعثرة في تلك الحديقة، كُتبت عليها أسماء العشاق وبعض الرموز التي لا معنى لها، وزهور الياسمين المُعلقة على أطراف الأشجار تنهمر كلما هبت الريح، فتندمج رائحتها مع الهواء لتسكن في كل نفس يأخذه الطلاب عنوة.

يشعل سيجارته الآن، ويشعر بيد تلامس كتفه، فتطلع إلى خلفه ليرى صديقه عمر.

شابٌ أبيض البشرة، يملك شعر مُجعدا أحمر ملفوفا بإحكام كعقدة من الخيوط يصعبُ فكها، وعينين بُنيتين تبرقان كنجمة في المساء كلما حلّ الليل.

قال مُستغربا:

- هذه أول مرة أراك تدخن يا إمران؟!

- وماذا تظن من شاب والده مدمن على التدخين، طبيب ينصح بعدم التدخين مثلا!

بينما كانا يسيران باِتجاه مقعدٍ خشبي، رد ضاحكاً:

- لا، مُدمن ينصح الأطباء بالتدخين.

- أنا أدخن نادراً، لا تستغرب في المرة القادمة إذا كنتُ أحملُ سيجارة في يدي.

- أما زلت تفكر بها؟

جلسا على ذلك المقعد، وتوقف إمران عن الحديث، وكأن حاكما قد استولي على لِسانه، فينطق بداخله ما طاب له من الحزن، لِتسقط أبجديته المُزورة في قلبه، وكأنها تسقط في متاهة لا بداية لها ولا نهاية.

يتأملها بكل قوته، فتاةٌ بيضاء خلقت بخديّها شتاءً، تبددت منهما حبات هادئة من الثلوج، تداعب الهواء برقتها، ووجهٌ طفولي يطردُ القمر الذي

يتغزل به الشعراء، وشامة مميزة على رقبتها، وعينان خضراوان سرقت من الربيع لونا، ترى من خلالهما الجنة، وكأنهما بابان يفصلان بين الأرض والسماء، وشعرها الأملس الذي استرسل حتى تعدى مخيلته.

استشعر عمر غيابه العقلي، فهز كتفاه بيده.

- إلى متى ستظل شاردا؟

رد بعفوية:

- ماذا... لم أكن شاردا!

- لم تجاوب على سؤالي حتى الآن.

- أي سؤال!

- سؤالي عن تلك الفتاة، أما زلت تفكر بها أم لا؟

- وكيف لي ألا أفكر بفتاة أحبها؟

رد عمر وفي قلبه كتلة استياء تشده لضربه ببعض من الكلمات.

- كيف لك أن تحب فتاة لا تعرف اسمها حتى...

عاينه بنظرة سخيفة، وكأنه يقول لا حاجة أن تُذكرني.

- ألا تراها كل يوم تأتي في سيارة باهظة الثمن، وثيابها أيضا غالية، وأنت لا تملك حتى ثمن خاتم من حديد لها، كفاك غباءً.

ساد الصمت عليه، لم يكن يود التحدث في هذا الموضوع كان دوما يفرّ من واقعه ليعيش في أحلام جميلة وتخيلات غير متعبة، رد عليه بجملة دون أن يطيل الحديث.

- معك حق، فالفقراء لا يحق لهم أن يحلموا.

تغيرت ملامحه، ليعيق طريقه سريعا.

- أنا حقا آسف، ولكني لا أحبذ أن أراك في هذه الحالة من الضياع.

قاطع إمران اعتذاره بهدوء:

- الفقراء لا يفكرون، وليست لديهم أحلام، وحتى إذا تمردوا على عقولهم وحلموا، سيحلمون بثيابٍ جديدة، ومنزلٍ جديد، وتأمين لقمة العيش، كم هو قاسي هذا الواقع، لا يدعنا نحلم براحتنا.

- صدقني، الغد سيكون أجمل، سنتخرج ونحب ونتزوج، ونروي قصتنا لأطفالنا.

رد باستخفاف:

- كيف لك أن تقتبس هذه الجملة الغبية، الغد ليس جميلا إلا في الروايات والقصص، فدوما ما تنتهي القصة بنهاية جميلة، أمّا غدنا فهي رواية لم تكتب بدايتها بعد.

- لم أنت متشائم على غير عادتك اليوم!

- وتسأل بكل حماقة، أنت تعرف الوضع، نحن ندرس في هذه الظروف الصعبة ونعمل في ذلك المقهى لندفع أقساط الجامعة، أنا حقا أحس

أحيانا بانه يجب عليّ أن أموت، فحياتي لا تستحق حتى سرقة الهواء من شخص آخر!

- من أين تأتي بكل هذا، وضعي مثل وضعك، ولكن لا أبالي بشيء، الاستياء لا ينفع واعتدنا على ذلك، لا شيء يستحق منك كل ذلك التفكير والعناء.

- أنت لا تفكر، حتى تبالي أصلا.

يتحرك تحت وطأة الحديث في اتجاه الجامعة، يرسم ابتسامة مُصطنعة تتماشى مع مزاجه، فتتحول إلى قناعٍ مسرحي يتقمص شخصيته ويلعب في دوره كلّما كان الوقت مناسباً، ليتك تعرف يا إمران بأني أتظاهر بالتفاؤل لأحمل عنك الثقل، الذي يطحن جسدك كحبة قمح فتصير بقايا قليلة من هذه الحبة.

كان عمر أيضا حزينا لوضعه التعيس ويخفي في قلبه كل ما جاء إليه من آلام تجره إلى الهاوية، فقد كان يعلم الصراع الذي يحدث بين قلبه وعقله، وتقلبات مزاجه في الفترة الأخيرة، قرر بعد وقت أن يُخبر الفتاة بنفسه عن حُب إمران لها ويحل تلك المعضلة التي باتت كقارب نجاة بنسبة إليه في وسط البحر.

لاحظ إمران غيابه، فأحس بخطئه الذي اقترفه دون قصد، لينظر إليه وعيناه مليئتان بالأسف:

- أنا حقا أسف..

رد بعتابٍ تلاشى فجأة:

- لا داعي للأسف، أنا أقدر ظرفك.

- لا أعلم ماذا حل بي هذه الفترة...

- كفاك حديثا، يجب أن ندخل إلى القاعة.

- لن أدخل سأذهب إلى المنزل وأنتظرك هناك، فمزاجي لا يتحمل تشريح ضفدع تعيس ليصير درسا، ذنبه الوحيد هو أننا بشر.

- منذُ أن أحببتْ، تحولت إلى شخص آخر، يجب عليك التحمل قليلاً.

- لو لم أتحمل لكنت كرماد يسقط من سيجارة عجوزٍ على حافة الموت...

- حسنا، اذهب أنت وسألحق بك ريثما أنتهي.

- جيد إذا، أنا في انتظارك، وداعا..

- وداعا.

بعد رحيل إمران، بدأ عمر بحثه عن الفتاة، ليخبرها كل ما أخفاه إمران في قلبه طيلة ستة أشهر، أخذ يبحث في قاعات المحاضرات في السنة الثانية، كان يجري في الممرات، وكأن أحداً يلاحقه؛ لكنه لم يجدها هناك، فخرج بخيبة أمل كبيرة.

دام بحثه حوالي نصف ساعة، سأل بعض زملائه في السنة الثالثة والرابعة، ولكن دون جدوى، حتى تعثرت قدماه بفتاة كان يعرفها منذ شهرين في ممر الطابق الثاني، كانت تستند إلى الحائط؛ فتاة سمراء

تحبس أنفاس شعرها بغطاء أبيض اللون مخطط من الجوانب، لا تهرب منها خصلة واحدة، تلبسُ فستانا أسود مصنوعا من الحرير الصناعي تغطي كامل جسدها، عليها بعض الأزرار عند رقبتها وزخرفة نسائية غير راقية، تعضُ على غطاء قلمٍ أزرق، لتكتب بذات القلم على دفترٍ في يدها.

- جيد أني رأيتك

ردت:

- لم أفهم!!

- أنا آسف ولكني أبحث عن فتاة معينة، ولا أعلم في أي سنة هي؟

ضحكت بخفة، لتظهر تراكيب أسنانها المبعثرة وتقويمها المعدني:

- أعتذر، ولكن لم أفهمك من سرعتك.

- أبحثُ عن فتاة..

- لم أنت على عجلة من أمرك... هل أعرفها؟

- لا أعلم..

قهقهت بقوة مجددا، لم تعد قادرة على حبس ضحكتها خلف تلك الشفاه:

- أنا أعتذر مرّة أخرى لكوني غبية.

- لستِ غبية يا تولة، لو كنتُ مكانكِ لضحكت مثلك.

بعدما أخذت شهيقا متعبا، لتكف عن الضحك:

- حسنا، صفها لي.. ما هيئتها؟ ما هو لون عينيها، شعرها؟

- ليت صديقي كان هنا، فهو يستطيع أن يصف لكِ حتى النملة وهي تضع البيض!

- من صديقك؟

- صديقي الوحيد، أنا هنا من أجله، حسنا سأخبركِ بعض التفاصيل...

- أعتقد أني عرفته، أليس هو الذي تمشي معه طيلة الوقت؟

- نعم أنه هو..

- ولكن قبل أن تخبرني أي شيء، دعنا نجلس في مقهى الجامعة ونتحدث براحتنا لقد أثرت فضولي، وأود أن أعرف قصته.

-ولكن لا أستطيع التأخر.

أخذا الاثنان يمشيان في الممر، حتى سبقتهما ظلالهما إلى المقهى الصغير، لتجلس أمامه وتمسك طرف الحديث بقبضتها، فينكسر القناع الأنثوي تحت حُكم الفضول:

- قل لي يا عمر، ما قصته.

- لا أعلم من أين أبدأ!

- ابدأ من حيث شئت.

- إن إمران...

قاطعته دون أن تكبت بما في داخلها:

- إمران؟

- نعم، إنه صديقي لم أنتِ مستغربة!

- لقد عرفته، الجميع تحدث عنه في الجامعة.

- لم أفهم، هلا وضحتِ من فضلك؟

- يقول الجميع، إنه شخص متفوق، وذات مرة أوقف الأستاذ وأشار إلى خطئه، ليتحول من طالب عادي إلى عبقري.

- نعم أتذكر هذا اليوم، هل تصدقين ذلك..

- ماذا؟

- بالرغم من أنه في الفصل الأول إلا أنه درس جميع المواد دفعة واحدة!

تعجبت تولة قليلا لتقول متأملة:

- يا إلهي، كيف حفظ كل هذا؟

- لا أعلم، دعكِ منه...

- لذلك أعتبر أستاذنا في السنة الرابعة مثالا حيا لنا.

بينما كانت تولة ترنو بمخيلتها إلى الفضاء المليء بنجوم الغيرة، شدّت عين عمر فتاة تلبسُ قميصا أصفر؛ تتسلسل منه خيوط صغيرة، محاكة بإتقان شديد، مشكلة لوحة مكونة من حروف لاتينية، ومزهرية قُرمزية اللون تقف في منتصف الطاولة تحتوي على ثلاثة ورود الصناعية لا تدب في أوصالها أي روح، وكرسيا خشبيا فارغا، ومفكرة صغيرة

رُسم عليها زُقاق شعبي، ظهر من خلالها بعض الأطفال يحملون بقايا من الحطام المتبقي من الطفولة.

كانت تجلس وحيدة على طاولة محصورة في زاوية تخنق الأنفاس وبيدها فنجان قهوة حار، يهتز بحركة يديها، ارتشفت بنعومة ثغر الفنجان، وكأنها تسحب منه الحياة، فتبصم بإبهامها في قعره، ليرسم الطحل السبيل الوحيد لسرقة قلبها.

شبّه عمر تلك الفتاة، ليسأل دون أن يطيل البصر:

- انظري إلى تلك الفتاة، هل تعرفينها؟

- ماذا، أين؟

- هناك على تلك الطاولة.

- إذا، هي من تبحث عنها!

رُسمت على وجهه ابتسامة طفيفة تكاد أن تختفي:

- تشتت أفكاري، ربما تكون هي، هلا قلت لي ماذا تعرفين عنها؟

- أنا أكرهها بشدة، فهي دوما تكون وحيدة، وتجلس بمفردها، حتى إني لم أسمع صوتها في القاعة أيضا.

- ولم تكرهين فتاة لا تعرفينها؟

- لا أعلم..

رفع صوته بقوة:

- أي منطق تملكون! أنا حقا مُستغرب منكم، إمران يحبها دون أن يعرفها، وانتِ تكرهينها دون أن تعرفينها!

- ربما المشاعر لا تحتاج إلى كلام.

- أنا أرى ذلك الآن.. حسنا أخبريني اسمها؟

- ولم تسأل بعصبية!

- أنا آسف..

- تصرفاتك أحيانا تدل على غباء بحت، على كل حال أعتقد أن اسمها آيلا!

أمسك بأعصابه مثلما يمسك جمرة نار ويطفئها في مياهٍ هادئة، ليتسلل الهدوء إلى دمائه ويستطرد الغضب مجدداً:

- تعتقدين؟ ولم لستِ متأكدة!

- لأنني سبق وقلت لك، لم تختلط مع أحد من قبل.

ناول عمر كُتبه من على الطاولة:

- حسنا سأذهب الآن... أراكِ لاحقاً.

- لم تشرب القهوة بعد!

- القهوة لا تحتاج إلى الشُرب، رائحتها تكفي...

حددت قدماه مساره، ليمشي بين الطاولات، مُتعثرا بتساؤلاته الارتجالية، وكأنه يحاول التخلص من تلك الأفكار التي تُحيط به، ليمر بين الكراسي وأصوات الطلاب، وكأنه أفعى يختبئ بين محصولٍ

أحرقته الأفكار، ليلدغ ذيله فيصبح فريسة سهلة للأسئلة "ماذا سأقول لها؟ كيف سأُعرف نفسي! ماذا ستكون ردة فعلها"....

تساؤلات تكاد أن تُمزق عقله إلى قطع صغيرة، يصعبُ جمعها مجددا، وخجل يحيط به كظله، ذلك الظل العنيد الذي لا يفارقه أينما ذهب.

كان من الصعب أن يُخمن طريقه، ويصل به الحال بالتوقف قرابة ثلاث أمتار بعيدا عنها، بدأ بتشجيع نفسه بجملة واحدة دون أن ينتبه لسرقته أنظار الجميع، لن يحصل شيء... لن يحصل..

كان الجميع ينظرون إليه كمهرج مسرحي يمثل شخصية غبية بإتقان، لتُعلق طالبة "ماذا يفعل هذا المجنون!" كان عمر يقف في مُنتصف الطاولات وعيناه تحدقّان في عينيها مباشرةً، حتى لفت انتباهها، لتُحرك يدها اليُمنى وكأنها تقول "ماذا تفعل، ولم تحدق بي!".

تصبب عمر عرقا بعدما انتبه ليدها، تأكد من أنها نفس الفتاة فقد كانت تمتلك تلك الشامة المميزة تحت فكها كما وصفها إمران، حتى قرر الجلوس أمامها.

كان التوتر يتألب عليه، ما عاد قادرا على جمع مفرداته، تمر الدقائق وكأنها تلتهم بعضها، كانت تنتظره بفارغ الصبر، حتى قرر أن يبوح لها بكل ما في داخله جُزافا:

- أنا عمر وصديقي يحبك ويخاف أن يخبرك، هل تحبين أحد؟

حركت رأسها بهدوء نحو اليمين لتُغطي أشعة الشمس نظراتها المُستغربة، فيأكل الخجل نصف وجهها وتحمر مقلتاها.

- أنا آسف على طريقتي الهمجية، ولكني متوتر....

أنهت حديثه بيدها وعاينت الطاولة باحثة لشيء ما، ثم تفقدت قعر حقيبتها وحملت مُفكرتها الموضوعة على الطاولة لتهزها في الهواء دون أن يسقط منها شيء، تتأكد مجددا في حقيبتها، ولكن دون جدوى.

كان عمر مُستغربا من تصرفاتها، فهي لم ترد كلمة واحدة، كان ينتظر الشيء الذي تبحث عنه، حركت يديها في إشارة إلى انها بحاجة إلى قلم، فهم عمر ما هي بحاجته:

- حسنا، أنا لدي.

وضع يده في جيبه بعفوية وبلهفة، وتناول القلم، وأعطاها بذهول شديد، تفتح مفكرتها مجددا على ورقة مليئة بالجمل القصيرة مثل "نعم، إنه على اليسار، أنا أحب هذه الأغنية" وغيرها من العبارات اليومية وكتبت أسفل الورقة "أنا بكماء"، حملت مُفكرتها وعكست اتجاهها، ليقرأ عمر ما كتبته.

كان فضوله ينقره كإبر صغيرة تخفى آثار الحُمى "ماذا تكتب؟ ولم لم تتكلم؟ الكثير من الأفكار تشغل باله حتى قرأ تلك الجملة، لتصفعه بعض خُصل شعرها الطائرة في الهواء بصدمة كبيرة "كم كنتُ غبيا، لِمَ لمْ أفكر في هذا الاحتمال!".

حاول عمر الاعتذار منها عن طريقة الكتابة على تلك المُفكرة، لكنها منعته من الاعتذار، عرفت طيبة قلبه من حديثه العفوي، وكتبت له "أرجوك لا تعتذر، ولا أريد شفقة أي أحد علي". بعدما قرب عينيه من المُفكرة مجددا، أصرّ كتابة شيء حتى ولو كان كلمة واحدة، فقد كان يظن أنها صماء، ولكنها منعته مرّة أخرى، وأشارت بيدها على أذنها اليسرى، وكتبت "أنا، أسمعك جيدا، تستطيع التحدث كما تشاء وأنا سأكتب لك". ابتسم عمر لها تحت غطاء من الأسف والشفقة، وقرر التحدث وهي تكتب، كان ذلك الشعور غريبا بعض الشيء، أحس عمر بالألم عليها:

- أنا آسف لأنني كنت فظا معكِ، ربما سمعتِ حديثي السخيف عن صديقي.

كتبت بألم، وكأنها تكتبُ أوجاعها على صفحات بيضاء خالية من الهموم، لتسود الصفحات وتُرميها بعيدا:

- لا تعتذر، لقد كان عمري اثني وعشرين عاماً منذ أن فقد لساني الكلام، أي قبل خمس سنوات تقريباً.

- أكُنتِ تتكلمين!!

تكتبُ مجدداً، ليشعر بالأسى عليها "كيف يمكن للمرء أن يتألم دون أن يُعبّر بلسانه":

- نعم، كنتُ مع والدي مُتجهين إلى مدينة الحسكة، حيث اصطدمت سيارتنا بسيارة أخرى، فقدتُ يومها والدي، وبقيتُ حيّة مثلما ترى، ومن الصدمة توقفت عن الكلام.

كانت عيناها مُحمرتان تملؤهما الدموع، حتى انهمرت دمعة دون قصدها، ليُحدق عمر بلمعانها وهي تسيل على مقلتيها نزولا إلى شفاهها ثم رقبتها، وتسقط كسقوط قطرات الندى بعد ربيع أزهر جمالا.

كانت تتألم بصمت وتكتبُ أوجاع لسانها كل مرة تحمل بها قلما، مثل شجرةٍ عبّرت بأوراقها عن قساوة الخريف.

حاول عمر أن يتناول منديلا ليعطيها وتمسح تلك الدمعة، التي تركت أثرا على نعومة حياتها، لتصير المسامات تُرابا زُرعت عليها الكثير من الزهور البيضاء، تنبُت كلّما ارتوى التراب من دموعها المالحة.

ردت بيدها رافضة بقوة أخذ المنديل، وكأن خطوط يدها أيضا تتحدث، لتقرأها عرافة متبصرة في مستقبلها القادم، الذي يملأ سماءها ببعض الغيوم الهاربة من قدرها.

لم تتأقلم مع وضعها منذ خمسة سنوات، ففي كل مرة كانت تكتبُ فيها كان لسانها يتحرك فتحس بضعف شديد أمام تعبيرها للمفردات.

حاول عمر مواساتها ببعض الكلمات المعتادة، لتبترّ حديثه وتكتب برعشة، لتصير تلك الخطوط كعقدة لا يفهمها سوى صاحبه:

- أرجوك، لا تقل لي كلاما تعودت أذناي سماعه..

- أتعلمين، أنا ضعيف أمامك، ولساني لا يتجرأ بأن ينطق كلمة واحدة.

- دعك مني، أنا آسف لأني حزنتُ قليلا، لقد تذكرت موت والدي أمام ناظري.

غيّر عمر مسار الحديث:

- والآن ألن تخبريني ما اسمكِ؟

ابتسمت بحنية، ليتساقط من ابتسامتها آلام وتنسى كل هموم المتراكمة كالغبار في مكتبة قديمة على قلبها، لتكتب مع وجه مبتسم صغير في أواخر جملتها:

- اسمي آيلا وأنت!

جلس عمر بجانبها، ليرى كل ما تكتبه فورا:

- أريد أن نكون أصدقاء لو لم يكن لديك مانع؟

أحست بالأمان مع عمر:

- أتعلم، لم أمتلك صديقا منذُ أعوام.

- ها أنتِ ستمتلكين صديقا جميلا مثلي.

ابتسم الاثنان وأخذت تدون له:

- قبل أن أوافق، هلا تشرح لي ما قصة صديقك هذا.

ضحك عمر:

- قصته غريبة، إنه يحبكِ منذ ستة أشهر ولم يتجرأ على أن يخبركِ بشيء، حتى أنا منذُ قليل كنتُ خائفاً ومتردداً ولكن الآن شعرتُ وكأننا صديقان منذُ زمن.

- وأنا أيضاً امتلكت لوهلة ذات الشعور، إذاً أخبرني من البداية.

لمح عمر ساعته، بقي من الوقت نصف ساعة حتى يعمل:

- أنا آسف، يجب أن أذهب لأقابل صديقي وعملنا سيبدأ بعد نصف ساعة، هل تكونين هنا دائما؟

- لا، اليوم فقط جلستُ هنا، غالبا ما أجلسُ خلف الجامعة، وتحديداً على ذلك المقعد الخشبي الذي يقع أمام شجرتين ملتصقتين ببعضهما.

- عرفتُ الشجرة فقد نقشت اسمي عليها منذُ دخولي للجامعة، إذاً سأراكِ هناك وأخبركِ قصته.

لم يبق مكان في تلك الصفحة لتكتب شيئا آخر، انتقلت إلى صفحة خالية:

- سأكون في انتظارك..

- شكرا للطفك، سأراكِ قريباً.. وداعاً

مضى عمر في طريقه، كان يمشي بسرعة كبيرة، يخرج من أبواب ويدخل أبواب أخرى ويتعثر على الأدراج للخروج من الجامعة، لم يكن يملك من الوقت إلا القليل حتى يصل في الوقت المحدد.

بينما كان يمشي، كانت الخواطر تنداح وسط أفكاره التي أحاطت به، ليتوقف فجأة "كيف أخبره بأنني قابلتها، كيف سأخبره بأنها بكماء!"

خواطر تجذبه للمضي قدما كرجل آلي لا يملك روحا حتى وصل بعد قرابة ربع ساعة إلى منزل إمران، طرق الباب بيده، ونادى إمران... إمران هل أنت هنا؟

فتح الباب، تبادلا بعض النظرات الباردة، دون أن يُكلم أحد الآخر، حتى حرك إمران زوايا فمه.

- أين كنت؟

- في الجامعة.

منذ أن قابل عمر آيلا، بحث في جعبته عن بعض الألفاظ، ليصنع منها جملة تُسيطر على نمط الكلام دون أن يخبره بقصته، حتى فكرّ باقتراح سريع.

- ما رأيك...

صدّ ببرودة شديدة.

- لا تكمل، رأسي يؤملني.. دعني رجاءً!

- ما هذا الأسلوب السخيف!

- أليس لديك تقدير.. ألا ترى حالتي!

- لا أرى سواك.

استلقى إمران على السرير ليحضن مخدته البُنية بقوة شديدة، ويستدير نحو إلى الحائط، ليقول بإهانة:

- أكمل حديثك.

خرّب إمران سلسلة أفكاره، جلس عمر على كرسيه الخشبي، ورد غاضبا:

- حقا!

غير موضع رأسه مجددا.

- قل ما لديك!

- يجب أن نتناقش في موضوع يخصك.

حرك إمران حاجبيه وكأنه غير مُبال بشيء:

- يخصني!

- سنذهب اليوم إلى منزل جدتي بعد انتهائنا من العمل، وسأخبرك بما حدث اليوم.

قبل أربع أشهر، توفي والداه في حادث سير وانتقل عمر من منزله الذي أستأجره والده آنذاك إلى منزل جدته التي كانت تعيش فيه وحيدة، كان منزلها يقع على أطراف المدينة حيث الخلاء والصحراء، كان يتألف من طابقين، وحديقة كبيرة، تزرع فيها ما طاب لها من الخضرة والزهور، كان عمر يشغل الطابق الأرضي وكان يساعد جدته في الطعام والزراعة بالرغم من أنه كان يعمل أيضا.

جعّد إمران لحافه، وجلس على سريره:

- ستقول الآن، وإلا لن أسمعك اليوم.

- لا تستمع ولكن الموضوع يخص تلك الفتاة.

- عمر، كفاك مُزاحا.

- وهل سألعب بمشاعر صديقي الوحيد؟

- قل الآن.... الآن!

اِفتّر عمر رغم استفزاز إمران له:

- لن أقول لك حتى تأتي معي إلى منزل جدتي، فأنت حتى لا تعرفها ولم تزرني من قبل! هل هذا قانون الصداقة.

- ولكني لست صبورا أنت تعرف؟

كان عمر يبتسم خلف قناع حزين، في محاولة منه لإخفاء ألمه به.

- اصبر لساعات قليلة، مثلما صبرت ستة أشهر.

بدأت حرقة قلبه تنخر عظامه مثل دودة جائعة.

- ربما تكون هذه أول جملة صحيحة تقولها.

- اسمع الثانية إذا، إذا لم نذهب إلى العمل الآن، قد نُطرد.

- كم الساعة؟

- الثانية تماما، ولقد تأخرنا.

- حسنا، سأخبر والدتي إني سأنام عندك وسنرحل.

كان إمران يعمل لخمس ساعات خلال ستة أشهر في ذلك المقهى، الذي تلاصقت جدرانها غرفته، ليدفع أقساط الجامعة ومصروفه اليومي، فتنداح يداه من وسط ذلك الركام، وينحت بالصخور القابعة في طريقه،

لتصير رملا ناعما، تداعبه الرياح بلمسته، وصل الاثنان إلى المقهى وتأمل شكلها كالعادة.

بابٌ زُجاجي ضخم، ألصقت عليها بعض رسومات أكواب تجذبُ الزوار إليها، أمامها وضعِت أربع طاولات معدنية، على كل طاولة توجد منفضة للدخان ومزهرية رخامية بداخلها زهرة حمراء تفوح منها رائحة منعشة تدخل السعادة إلى القلوب.

في الداخل، أخذت التماثيل البشرية العارية زوايا المقهى، يحملُ كل تمثال إناء من الخزف مصنوع يدويا، تخرج من فتحاته المياه وتسقط في الحوض، وتعود إليه مجددا، وسلاسل زرقاء وحمراء تُنير كل الفراغات الخالية في المقهى، وموسيقا خافتة تنبعث من مكبرات الصوت، يُهيئ جوا مناسبا لبعض العشاق والباحثين عن الهدوء.

كان أساس المقهى فرنسيا، فقد كان يقدم الأطعمة والمشروبات الفرنسية النادرة في سوريا، لذلك تقدم إليها الكثير من العائلات من الطبقة الراقية.

كان إمران يعمل كنادل بين الطاولات، يأخذ طلبات الزبائن، ويجلب الصحون والأكواب الفارغة، أمّا عمر فقد كان يعمل في المطبخ، يغسلُ الصحون بيده، ويرتبها على بعض الرفوف المعدنية، وفي بعض الأحيان كان يُحضر الكعك الفرنسي، الذي كان معروفا في المقهى بمذاقه.

يدخُلان الباب الآن، أخذا الاثنان يمشيان صوب المطبخ الواقع في جهة اليمين، كان هناك يبدلون ملابسهم، ويرتدون للعمل قمصان سوداء، خيط عليها اسم المقهى "La Nourriture" أي الغذاء باللغة العربية.

كان الاثنان على وشك أن يبدلا ملابسهم حتى دخل صاحب المقهى إلى المطبخ ليعاتبهما على التأخير بضع دقائق، كان صاحب المقهى فظا بطباعه، لم يكن يعاملهم كعمال يبحثون عن النجاة بين قساوة الحياة والعيش، بل كعبيد يستغلهم، كان يعطي لكل واحد ثمنا رخيصا لأتعابه، لا تكفيه لتأمين أقل حاجاته.

لم يكن الاثنان يُحبان العمل لديه، ولكنهما لم يجدا عملا سويا، فقد اتفقا من أول يوم في الجامعة، أن يعملا سويا في أي مكانٍ كان، وإلا لن يعملا.

بينما كان إمران يبدل ملابسه قال عمر مرتبكا:

- البس بسرعة، قبل أن يعود ذلك المتعجرف مرة أخرى.

مشى نحو الحائط ليحمل قميصه، رأى شيئا غريبا لأول مرة يراه في المقهى، بدأ بالاقتراب من الحائط ووجد بقايا من باب قديم تم إغلاقه من قبل صاحب المقهى، ولأنه رجل يحب المال لم يصلحه أو يدهنه بطريقة تخفي أثر الباب، فكر في نفسه، "إلى أين كان يأخذ هذا الباب؟" إنها ليست حجرتي بالتأكيد، ولكن أعتقد أنه ممر مُلتصق بحجرتي، ولكن لم هو موجود أساسا؟

- عمر... ألم تلاحظ هذا الباب من قبل؟
- أي باب؟
- الباب الذي تم إغلاقه بالحجارة، دقق جيدا.
- ملاحظتك قوية، كيف لاحظت هذا مع أنك لا تأتي للمطبخ، أمّا أنا أكون هنا طوال الوقت ولم ألاحظ هذا الشيء.
- لأنك لا تفكر إلا في عملك.
- لا تشغل بالك إنه يؤدي إلى الشارع على ما أعتقد.
- لا، إن غرفتي على يمين الباب وهناك مكب نفايات واحد وينتهي عند باب المطبخ المطل عليه.
- لا أعلم لما تشغل بالك بأشياء سخيفة!؟
- سأتحقق اليوم من الأمر وأسأل أحدا.

أخذ إمران يعمل بجهد طوال أربع ساعات كاملة، دون أن يسرق من الهواء نفسا واحدا، كان يحملُ الأطباق ويخدم الزبائن بابتسامة كبيرة تكاد أن تُمزق شفتاه حتى اتجه إلى عجوز يجلسُ في زاوية المقهى، يسعل بقوة شديدة وكأنه يرمي روحه خارج جسده كان يلبسُ سترة طويلة سوداء تُغطي ركبتيه، ويضع على عينيه نظارة دائرية الشكل تحجبُ عليه ألوان الحياة الزاهية، وسلسلة طويلة تصل بين سترته وساعة قديمة الشكل وحذاء متسخ بالوحل الجاف يترك آثار خُطاه خلفه كلّما تحرّك، وعكاز قديمة بجانبه يساعده على التحرك براحة.

كان يلبسُ قفازاً صوفياً أسود يُغطي يده اليمُنى مُطرز عليها دائرة كُتبت بداخلها أرقام مبعثرة، ويضع على رأسه قبعة سوداء قديمة تُخبئ صلعته، لتتدلى منها بعض خصل شعره البيضاء وتسقط على كتفيه.

اقترب منه إمران وقال:

- كيف لي أن أُخدم حضرتك!

ضحك بخفة دون أن يظهر أي سن تحت شفتيه.

- لا أود شرب شيء يا إمران.

استغرب تحت ابتسامته مُفتعلة:

- ماذا.. هل تعرفني؟

طأطأ رأسه بخفة:

- أنا أعرفك جيدا.

- جميع الزبائن يعرفونني.

كرر سؤاله:

- كيف أساعدك؟

بينما كان يسعل رد بقوة على سؤاله:

- أعرف الكثير عنك، اسمك هو إمران ولدت في ٢٧- ٤- ١٨٦٠، أي في مثل هذا الشهر، واسم أبيك ليبراف وأمك غيثار أهذا كافٍ؟

راحت ابتسامته تطفو في الهواء، ليُقاطع صاحب المقهى حديثهم، وينحني متأسفا أمام العجوز.

- هل أزعجك إمران بشيء يا سيدي! نحن آسفون.

ثم نظر إلى إمران بغضب وأمره.

- أذهب إلى المطبخ سنتكلم لاحقا.

سار إمران دون أن يبصر أمامه، كانت عيناه لا تفارقان العجوز حتى وصل إلى الباب ودخل المطبخ.

كان صاحب المقهى يتحدث معه ويتأسف منه لسوء معاملة إمران له، بالرغم من أنه لا يعلم ما حدث، حتى قاطعه غاضبا.

- إمران لم يفعل شيئاً.. سأذهب الآن.

كان إمران واقفا بجانب الحائط، يرسمُ في مخيلته ملامح العجوز، وكأنه يخاف أن ينساه، ليقترب منه عمر ويهمس بسخرية في أذنه.

- اليوم ستموت؟

رد بغمغمة خفيفة.

- ماذا... تكلم جيدا!

- كم الساعة الآن؟

- الخامسة.

- إذا، لنذهب إلى منزل جدتك.

قرر إمران انتظار العجوز خارجا، حتى يفهم منه كل شيء، بعد تبديل الملابس، اتجه الاثنان إلى الباب الرئيس، أوقف صاحب المقهى الاثنين، ليتحدث إليهما، كان عمر يصغي إليه جيدا، أمّا إمران فقد كانت

عيناه غارقتين بالبحث عن العجوز بين الطاولات، كأُم أضاعت طفلها الوحيد بين حشدٍ من الصغار.

- أين هو!

رد صاحب المقهى غاضبا.

- لقد رحل، إياك أن أراك تتحدث مع أحد مرة أخرى، لو رأيتك سأطردك من العمل.

لم يكترث إمران لما قاله، حتى دفعه عمر باتجاه الباب:

- كما تريد، سنذهب الآن.

راح الاثنان يسيران في ذلك الشارع الطويل، الذي رُسمت على حيطانه رسومات كرتونية مضحكة وبعض العبارات تطردُ اليأس من القلوب، أغلب الكتابات كانت مكتوبة بالفحم الأسود، وكأن الأطفال يتركون بصمتهم على كل حائط لعبوا أمامه، حتى تصير ذكرى عابرة للكثيرين. كانت الشمس تُنير نصف الحي، ليُترك النصف الآخر تحت رحمة الظلام، فتظهر الخفافيش في ملعبها وتترك أصوات أجنحتها ترحلُ مع تلاشي ضفائرها بهدوء خلف الجبال الشاهقة.

كان الهواء بنسماته الباردة المُنعشة يداعب أوراق الأشجار، إنه منظر جميل حقا، يحس به عمر، كان يجد ما يجذبه في ذلك الشارع؛ أهو الشارع نفسه، أم الجدران، أم ذكرياته المنسية كورقة مدرسية رُميت بيد طالبٍ انتهى من الامتحانات النهائية!

غالبا ما تكون الأشياء سخيفة بنظرنا حتى نبتعد عنها وتصبح ذكرى، فتشدنا إليها بقوة حتى وإن كان سلة قمامة أمام المنزل، كان عمر يتساءل دوما كلما ترك ظلال خطاه خلفه في ذلك الشارع "ماذا لو رحلت فجأة عن هذا الشارع، هل سأشتاق له".

سأل إمران:

- ماذا لو تركت شيئا تعودت عليه.. هل ستشتاق له؟

لم يكن إمران شاردا، بل كان ينفضُ ذاكرته، كسيجارة تسقطُ منها الرماد.

- تذكرت! من ذلك العجوز الذي أشغل بالك في المقهى؟

ضحك بسخافة:

- هل تصدق، إنه يعرفني، ويعرف اسم والدي، ويعرف متى ولدت!

رد عمر:

- لعله يمزح معك، فالجميع يعرف اسمك واسم والدك.

- واسم والدتي! لا أشعر أنها مزحة، كان وكأنه يُلمح لشيء ما واختفى.

الساعة الخامسة والنصف، وصل الاثنان إلى المنزل، كان إمران ينازع مع الأحداث التي صارت معه، أمّا عمر كان متحمسا، ليُعرف إمران على جدته، فتح عمر ذلك الباب المعدني المزين بزهور اللوتس، ليدهس بطرف قدمه على ورقة من شجرة العنب ويركز نظره على خيوطها

المجعدة تحت حذائه، كان إمران يتأملُ المنزل، وكأنها لوحة تشكيلية تحتاج إلى تأمل، فيدخل بمخيلته عالما آخر.

كان يتأمل الشُجيرات والجدار الخشبي وذلك الممر الذي تفوح منه رائحة الاسمنت المبلل، والغرف المبنية من بقايا حجارة مُكسرة ممزوجة مع الوحل، ينسدل منها بعض القش.

دخل الاثنان إلى غرفة الضيوف التي تقع على بضع أمتار من المدخل، ليجدا سجادة صوفية مُطرزة يدويا على الأرضية، عليها ثلاثة مقاعد خشبية، وطاولة في منتصف الغرفة، نُحتت على أطرافها مربعات صغيرة، ولوحة كبيرة ظهرت من خلالها أربعة خيول أصيلة وفارس يلبسُ قبعة يحملُ في يده اليُسرى منجلا تُزين مُؤخرتها بعض الخيوط السميكة، وتلفازا قديما صغيرا محصورا في زاوية على طاولة قديمة مثبتة ببضع حجارة مُستطيلة الشكل.

- إن نمط هذه المنزل قديم جدا، يُذكرني بالقُرى!

رد عمر بفرحة تغمر قلبه.

- لقد أصبت.

يبصر في الخلاء وينادي:

- جدتي لقد عُدت، وجلبت معي صديقي الذي حدثتُكِ عنه.

استولت البهجة على قلب عمر، لينسى كُل شيء.

- لو قلت لك لن تُصدقني، ولكني نسيتُ كلّ يومي في هذه الغرفة البسيطة.

- يجب أن أُصارحك يا إمران، لقد كُنتَ فظا في الفترة الأخيرة.

طأطأ رأسه وجلس وكأنه يرمي أتعاب جسده أرضا.

- كنتُ مشوشا وما زلت.. أتعرف أنا متشوق للتعرف إلى جدتك.

- أعلم بذلك.

نادى مجددا.

- جدتي.. جدتي...

بينما كان يُنادي سمع إمران صوتا خافتا يطرق طبل أذنيه بهدوء، تدخل الآن إلى الغرفة وهي تتكئ على عكازة خشبية حُفرت عليها خطوط مُستديرة، ترافقها كجزء من ساقيها.

عجوزٌ عانت مشقة الزمن وقساوة الحياة، لها جديلتان لفتهما بربطة محكمة، إذ لا يمكن للهواء فرش شعرها الأملس على أكتافها، تلبسُ نظارة كبيرة، وفستانا أبيض له عدة جيوب، تحتل ألوانها أشكال عجيبة، لم تكن ترى ما خبأ القدر لها، بل كانت الخطوط على وجهها تتنبأ بمصيرها المجهول.

قالت برعشة في صوتها:

- أهلا بكما يا ولدي، ما اسم صديقك يا عمر.

قال إمران وهو يُركز ناظريه على وجهها.

- إمران.

جلست على الكرسي، ووضعت عكازها بجانبها.

- إن هذا الاسم ليس غريبا علي!

- يا جدتي إن اسم إمران نادر حقاً، ولم أرَ شخصا من قبل يحمل هذا الاسم.

- أعلم يا ولدي ولكني أفكر بشيء آخر.

- بماذا تفكرين؟

- لا شيء يا بني! فإذا قلت لك لن تصدق الأمر، ولن تفهم، سأحضر لكما الشاي مع العشاء.

استغرب الاثنان من حديثها، ثم قال عمر:

- لا تُحضري شيئاً، فنحن سنذهب إلى غرفتنا وننام، فقد أهلكنا العمل.

أمرتهما بقسوة:

- لن تذهبا إلا بعد شرب الشاي!

- حسنا دعنا نشرب الشاي من ثم نذهب، لا داعي للعجلة يا عمر.. ثم أن هذه الغرفة جميلة جدا، تستحق تأمل تفاصيلها.

- هل أعجبتك فعلا!

جلس بجانبه، لم يكن إمران يعرفُ شيئا عن جديه، فقد أخفت عائلته كل التفاصيل عنه، ليقول لعمر في حنّو:

- ليتني عرفتُ جدتي أو اسمها!

- لا تقلق، أنا متأكد أنك ستعرف يوما ما، لا أعرف ما هدف والديك من هذه القصة.

بينما كان يتحدث مع عمر، وبعد فترة وجيزة، سمع صوت طقطقة الكؤوس.

- ما هذا الصوت؟

- لا تقلق إن جدتي ترتجف يدها عندما تحمل سُفرة الشاي، سأذهب لأساعدها.

وصل عمر إلى الباب وتناول السُفرة من يدها، كانت جدته تتكئ على عكازة بيدها اليُمنى وتحملُ السفرة في يدها اليُسرى.

وضع عمر السفرة على الطاولة، وجلس بجانب إمران، أمّا جدته جلست أمامه، ليقول إمران:

- أريد أن أسألك سؤالا آخر.

قال عمر مبتسما، بينما كان يصبُ الشاي:

- ألا تكتفون من المعلومات.

حملت جدته عكازتها مازحة مع عمر، لتهدده بضربه:

- لا تتكلم أنت.. اسأل يا بُني.

- ما هو عمرك الآن؟

ضحكت:

- أنا أضحك بدون أسنان هل ستتزوجني يا إمران، فإذا كان ذلك أنا موافقة.

عمت الضحكات على الجميع.

- لا يا جدتي! راودني شعور غريب أنك كبيرة جدا، ولديكِ ذاكرة صلبة كالحديد.

طأطأت رأسها:

- القدماء لديهم ذلك الشيء الذي لا تملكونه الآن، عمري سبعة وثمانون عاماً وغداً هو عيد ميلادي.

وقع عمر في حيرة:

- ما زلتِ تتذكرين عيد ميلادك!

- بالتأكيد أتذكر.

كان إمران يحسبُ على يديه عمرها، لتشعر بالفضول وتقول:

- ماذا تفعل يا بُني؟

- لحظة، فأنا أحسب في أي عام ولِدت.

- لا تحسب مواليدي هو ١٧٩٣ ونحن الآن في ١٨٨٠ أي ٨٧ عاماً.

- إنه شيء رائع أن يتذكر المرء ميلاده.

ضحك عمر:

- هل تتذكر يوم مولدك يا إمران؟

رد مازحا:

- بالكاد أتذكر، ماذا فعلت اليوم.

قاطعتهما الجدة وهي تتناول كأسها:

- تذكروا جيداً تاريخ ميلادكم فهو مهم في بعض الأحيان.

- شكراً لك لإجابتك على سؤالي.

- لا داعي للشكر، حان دوري.

- بماذا؟

- ما هو اسم أبيك؟

نظر عمر إليها بغرابة.

- إن اسم والدي هو ليبراف!

بعدما نطق إمران اسم والده، اتسعت حدقتا عينيها، وتقلص وجهها، وكأن أحداً مزق ملامحها بسيفٍ من الفولاذ، لترتجف خوفا وتنهض على ساقيها وكأنها فتاة في العشرينات من العمر.

تلك التشنجات الحادة أوقعت الكأس من يدها، لتتكسر من صلابة الأرض وتتحول إلى قطع صغيرة تتبعثر في الأرجاء، كحفنة من الرمال رُميت بواسطة عاصفة قوية إلى الغرفة.

كانت تتراجع خطوة تلو الأخرى إلى الوراء وتشير بيدها إلى إمران حين بدأ فمها بتأتأة اسم والده وبعض الكلمات مثل "إنه الجحيم، إنه هو" حتى وصلت إلى حافة الباب لتتعثر وتقع على الأرض وتنهض مُجددا

وتمضي على عجلة إلى غرفتها دون أن تتناول عكازتها؛ كان عمر يحاول تهدئتها بسبب هياجها الشديد.

لم يكن إمران يستوعب ما يحدث، فقد كان يلزم مكانه دون أن ينطق كلمة واحدة، وكأنه في حُلمٍ ما، ينتظر من يقرصه حتى يستيقظ.

عاد عمر إليه وعيناه لا تفارقان جدته:

- أنا أعتذر منك، فأنا متفاجئ مثلك تماما...

لاحظ إمران خجله وطبطب على كتفه.

- لا داعي للقلق يا عمر! ابق عند جدتك وافهم منها ما حدث.

- وأنت؟

- سأذهب إلى المنزل، لأرتاح قليلا.

لم يعد يدري ما يفعل، لا يلوي على شيء، مضى باتجاه البحيرة التي كانت تحتلها أوراق الأشجار والطحالب، وبين الحجارة المُكسرة التي تناثرت هنا وهناك، تسيرُ معه الهموم، لقد أمضى الكثير مع تلك البحيرة، كانت ملجأ له، وصديقة يكتمُ أسراره كلّما لاذ إليها طيلة تلك السنوات.

كان يجلسُ بقربها طيلة الليل، يفرشُ همومه، لحافا دافئا يغطي ضوء القمر الحزين، تختلطُ أفكاره مع وحشة الليل لم فعلتْ هذا؟ أتعرف والدي؟ أفكارٌ تحلُ بيومه البائس، وتتلاشى في الهواء، صارت أنفاسا حارة تعتملُ في صدره، وتشعلُ نار فضوله مُجددا.

في ذلك الطريق الهادئ، التي انبَلَجَ فيه نور الشمس، مضى مُجددا صوب يومه الجديد، كان يُحادثُ نفسه كالمجنون، ربما أذاها أبي، لا مستحيل إن أبي رجل طيب وكريم ولم يؤذ أحدا في حياته، إذا ماذا حصل؟

خواطر تعبثُ بيومه مجددا، كان يسبح مع تلك الغيوم البيضاء التي تلمع في السماء كلما سطعت الشمس، ليتحسس يده مفاتيح المنزل "الساعة تجاوزت السابعة، يا إلهي! اثنا عشر ساعة وأنا هُنا، كيف لم أنتبه!

فتح الباب، ووضع ركوة القهوة على نار هادئة، كان يشعرُ بهدوئها ويتأملُ ألوانها العديدة، التي صنعت له مجازا طويلا، يرنو بنظراته إليها، لتسمع الأم غليان المياه وتنهض متكاسلة من فراشها، أمّا الأب كان يغوص في بركة أحلامه، يُحرك شفتيه ويحتضنُ مخدته، ويسمعُ أهازيج الديوك قُرب أذنيه.

استندت أمه على الحائط وقالت باستغراب:

- ظننتك لصا.. وأنا أعرف أشد المعرفة لا يوجد ما يُسرق في بيتنا.

جلس على الأرض وسرق من ثغر الفنجان رشفة، تُعدل مزاجه، وتُرتب صباحه.

- ألم تقل لي إنك ستنام في منزل عمر؟

رد دون أن يرمق في عينها:

- قلت، ولم أنم....

جلست بجانبه.

- لم أنت منزعج هكذا؟

وقف على قدميه وبدأ يمشي مرتبكا:

- ولم سأكون سعيدا.... أخبريني!

- الحياة تحتاج القليل من التفاؤل.

- تفاؤل.. أسخف مُصطلح سمعته! مات جاري الذي أحبّني قبل أربع وعشرين ساعة ولم أكترث لأمره، هل أتفاءل بأني حي؟

- لم تُعقد الأمور هكذا، لم أقصد إزعاجك..

- لم أعقد الأمور! اليوم كنتُ في منزل جدة عمر، جدته.... وأنا حتى لا أعرف من جدتي، وتقولين لي بكل بساطة لم أعقد الأمور! من يُعقدها الآن؟

قالت الأم وهي تحاول التخفيف من حدة توتره:

- لم أراك عصبيا من قبل.

جلس على الأرض مجدداً:

- أنتم عُميان لا ترون أبدا.

ترقرقت عيناها بالدموع، ما عادت تتحملُ كلامه، أتى إمران إليها وقبّل رأسها:

- أنا آسف، من المستحيل أن أرى شخصا يُشبهُ والدي بالجحيم ويخاف من اسمه، دون أن أعرف ما السبب.

رنا إليه وعيناها تتساءلان:

- لم أفهم! من شبه والدك بالجحيم، ومن خاف منه؟

- جدة عمر، عندما قلتُ لها اسمي واسم والدي، ارتعبت وهربت مني.

- ماذا...

- لقد كبرتُ يا أمي، ومن حقي أن أعرف من أكون!

طرقات الباب القوية تشده من بين الهواجس، وكأن الباب يُضرب بمطرقة معدنية، فينكسر خشبها الهش أمام تلك الضربات، فتح الباب بخفة، ليرى عمر بحالته المزرية، كانت عيناه محمرتان من الدموع وجسده مُتصبب بالعرق، ألقى بآهاته خارج لسانه وكأنه يلقي حملا أثقل كلامه حتى أنطق لسانه خبراً "ماتت جدتي".

" في غمرة الموت تستمر الحياة، في غمرة الكذب تستمر الحقيقة، في غمرة الظلام يستمر الضوء "

غاندي

اليوم الرابع ـ ٦ أبريل ١٨٨٠
الساعة العاشرة صباحاً

في ذلك الشارع الذي أبعدت فيه الشمس الغيوم عن طريقها لتتجلي من وسط ذلك الركام الذي تركه يومٌ حزين خلفه، قبع الاثنان في تلك الغرفة الصغيرة لثلاثة أيام مُتتالية؛ بعد موت جدته لم يتجرأ عمر زيارة ذلك المنزل، الذي أباح به الموت موضع قدمه بين أعشابها المستلقية.

كانت الصدمة شديدة عليه، لم يكن ينبس بكلمة واحدة طيلة تلك الأيام، بل كان يجلس كتمثالٍ بشري يتأمل الخلاء دون عناء، ويرنو بمخيلته إلى تلك الجدران التي تكدست عليها الكثير من الحكايات والقصص، كانت تلك الجدران تحتضن غمّه، مثلما يحتضن رضيع أثداء أمه ويتمسكُ بها خوفاً أن يظلّ جائعا.

بعد عدة أيام، حاول إمران إخراجه من تلك الحالة، اقترح عليه الخروج للتنزه إلا أنه فشل في ذلك، كان يشعر بشدة لاشتياقه لجدته؛ في كل مساء كان يسمع صوت بكائه المُستمر، وشهيقه الثقيل الذي يقطع الأنفاس، كان عمر يحتضن مخدته في كل ليلة، ويبكي حتى بزوغ الشمس، كانت مخدته تمتص دموعه، كامتصاص التراب للماء، وكأنها هي أيضا ترتوي من تلك الدموع.

يجلسُ إمران الآن على كرسيه الخشبي أمام طاولته، يُطقطق أصابعه ويهز قدمه الأيمن، فكلّما سيطر عليه التوتر كان يهز قدمه بسرعة كبيرة دون أن يعلم، يحاول جاهدا أن يُرتب الأحداث، مثلما يرتب غرفته العائمة بالفوضى؛ موت ارمس، جدة عمر، الميلاد المشترك تساؤلات نالت من جسده طيلة الأيام، كان يشعر بوجود ثغرة من بين تلك السلسلة التي تعلقت حدثها الرئيس بالموت، إلا إنه كان يصعب تصديق أي شيء خيالي يحدث في مخيلته.

بينما كان يغطس في أعماقه، طُرق الباب فجأةً:

- من يكون هُناك؟

ردت أمه بصوتٍ لطيف، يدخل الطمأنينة في القلوب.

- جلبتُ لكم مائدة الغداء!

نهض إمران من كرسيه وفتح الباب بزاوية حادة، حرّكت الأم حاجبيها وأشارت إلى عمر، وكأنها تقول هل أكل؟ رد إمران بهمسة خافتة "لا يا أمي إنه لم يأكل منذُ الأمس".

لم يتناول عمر الطعام خلال تلك الأيام إلا القليل، وكلّما تناول بعض اللقيمات كان يُفرّغ ما بمعدته، حمل إمران سفرة الطعام، ووضعها على طاولته، ثم حمل السفرة القديمة التي لم تُأكل منها، وأعطته لوالدته.

بعد رحيل الأم، جلس إمران على كرسيه مُجددا؛ كان عمر مُستلقيا باتجاه الحائط، ويداه تلمُسان قشرتها، التي تسقط بمجرّد لمسِها، وكأنها ملّت من التصاقها بذلك الحائط.

قال إمران في شفقة:

- كفاكَ أرجوك، أنت لم تأكل منذُ أيام وجسدك بحاجة إلى الطعام، اخرج من هذه الحالة وعُد إلى طبيعتك، أنا أعلم أنك تعيش حالة قاسية، ولكن لا تستطيع إيقاف الحياة، فهي ستستمر حتماً..

تحرك عمر، وجلس أمامه وقال بشجْو:

- شكراً لك، لأنك تحملتني كل هذا الوقت.

رد إمران مازحا:

- دوما أتحملك، هذا ليس بأمر جديد.

مزحة إمران غسلت القليل هموم عمر، حتى باتت الابتسامة ترسمُ شكلا لطيفا على شفاه عمر، قال إمران بينما كانا يأكُلان:

- لم اسألك طيلة ثلاثة أيام...

- ماذا؟

- ألم تقُل لك جدتك، ما هو السبب التي جعلتها تغضب من اسم والدي؟

توقف عمر للحظة، لم يكن يود أن يتذكر أي من التفاصيل الصغيرة المتعلقة بجدته؛ بعدما رأى إمران حالته:

- أنا آسف، لم أقصد تذكيرك بما حدث.

- لا داعي للأسف، من حقك أن تسأل، ويجب ألا أدخل تلك الحالة مجدداً، يوم وفاتها كان غريبا..

- ماذا تقصد؟

- لا أعلم كيف أشرح لك، ولكن في هذا اليوم فقت مثل عادتي الساعة السابعة، ورتبت غرفتي.....

- وبعد!

- بعد نصف ساعة قررت أن أخبر جدتي عما حدث، وما قصة والدك، حتى سمعت أصواتا غريبة في المطبخ، وعندما رحتُ لأتأكد كانت جدتي جالسة على الأرض وتحمل بيدها اليُمنى كأس ماء وبيدها الأخرى شمعة غير مُضاءة، ثم نهضت وانتصبت مثلما تنتصب زهرة ذابلة عندما ترى الشمس.

باتت خطوط الاستغراب تظهر على وجه إمران:

- أتقصد إنها كانت تمتلك القوة، لتنتصب مثل شابة في منتصف عمرها؟

- تماماً هذا ما أقصده، سأصارحك لقد خفت قليلا عندما رأيتها هكذا.

- دعني من مشاعرك، أكمل ثم ماذا حدث؟

- ثم ابتسمت، ووقعت أرضا لن أنسى تلك الابتسامة التي خلقت الخوف بداخلي طوال حياتي كلّها.

راح إمران يقفُ قرب النافذة، وكأنه صُعق من الحديث، اقترب منه عمر:

- ما بك؟

- يا إلهي، كيف يحدث هذا.

- ماذا حدث؟

حدقّ إمران في عينه مباشرةً:

- موت جدتك...

- ما به؟

توقف إمران للحظة، وأشعل سيجارته، ثم بحث كالمعتوه عن ورقة خالية، حتى أمسكت يده مفكرة بيضاء لم يُكتب عليها شيء، فتحها وبدأ بالكتابة وتحدث بعصبية شديدة، تكاد تلك العصبية أن تُمزق حنجرته:

- سأُجن، في ٣- ٤- ١٨٨٠ أي قبل ثلاث أيام توفي جاري الفرّان ارمس في -- نفس اليوم الذي ولد فيه، وفي الساعة السابعة والنصف، كذلك جدتك....

قاطعه دون أن يكترث:

- إنها صدفة، لا أعلم لم أنت غاضب ومضطرب هكذا؟

- صدفة! ما رأيك إذا قلتُ لك، لقد مات وهو منتصب كما وصفت جدتك وكان لديه حدبة كبيرة اختفت في ذلك اليوم، هل ستعتبرها صدفة؟

جلس عمر على السرير وشرد قليلاً:

- إنه أمر غريب فعلا، ولكن ما زلتُ أعتقد أنها صدفة لا أكثر.
- عجيبٌ هو أمرك، تؤمن بصدفة، وتنفي كل شيء؛ الموت، الساعة، الانتصاب!

لم يكن عمر يستوعب التشابه الكبير بين الحادثتين، أمّا إمران فكان يُفكر عكسه، بل كان يربط الأحداث بطريقة غريبة، ثم قال بعدما أفلت لسانه، مُهاجماً شرساً:

- لم البشر يُقتلون؟
- يُقتلون! ماذا تقصد.
- سارق يقتُل بريئا ذنبهُ الوحيد يحملُ المال، مُغتصب يقتل فتاةً ذنبها الوحيد أنها فتاة، سيارة تُحطم أضلاع طفلٍ صغير، حافلة تُبعثر أشلاء الرُكاب، منزل ينهدم فوق رؤوس ساكنيه، فقير يُقتل بفعل الجوع، مشرّد يُقتل بفعل البرد، امرأة حاملة تُقتل بفعل الولادة.... جميع الحالات، البشر يُقتلون وحتى الحيوانات تُقتل مثلنا، ودائما هُناك فاعل أساسي!
- ماذا عن عجوز لم يمر بكل تلك الحالات التي ذكرتها؟
- هُنا الفاعل سيكون المرض، أو النسيان، أو حتى التقدم بالسن!
- وإذا قلتُ لك، لم تعتبر تقدم بالسن حالة قتل، ستقول بكل تأكيد توقف نبض القلب، وعدم ضخ الدم إلى الشرايين والأوردة؛ القلب هُنا قتل العجوز!

- القتل لا ينحصر في قتل شخص لآخر، أو قتل حيوان لآخر؛ القتل وبلغةٍ صارمة هو عملية إنهاء حياة كائن حّي بسببٍ ما.

- أنت تجن، عندما تُحلل شيئا ما.

- لم تُجب على سؤالي بعد!

- سؤالك لا جواب له، وكأنك تسأل من خلق الله؛ رُبما القدر، أو مشيئة الله مثل ما يقولون هو السبب الرئيس للموت.

- تُبرر تلك الحالة بالقدر أو هذه مشيئة الله، ماذا يُريد الله من طفلٍ رضيع؟

- دعك من الطفل، هل تخيلّت مرّةً لو أن البشر لا يموتون؟ هل تخيلت العالم؟ هل فكرت بالتوازن الذي بُني عليه هذا العالم؟

- توازن! عن أي توازن تتحدث... عن تزاحم القبور جنب بعضها! أم عن تحول حديقة كبيرة إلى مقبرة؟

راح إمران يمشي في الغرفة كالمجنون يبحث عن تلك الثغرة التي لا وجود لها، أمّا عمر فقد بقي جالسا، ثم قال بعدما عمّ السكون قليلا عليهما:

- أنت مؤمن بالله! إذا كنت مؤمناً مثلما أعرفك، ستدرك أنك مخطئ.

- إذا الله هو القاتل في جدالنا هذا!

- كفاك حديثاً عن هذا الموضوع، أنت يائس لأنك لا ترى الجواب لموتهما بهذا الشكل، معك حق إن موتهما غريب بعض الشيء ومتشابه، ولكن ليس دليلاً على وجود شيء.

- إن جدتك قُتلت، وأنا هُنا أقصد القتل بمفهومك وليس بمفهومي، أي إن هناك مجرم فعل هذا.

- أرجوك يا إمران كُن منطقيا قليلا.

- وأنت؟

- ماذا؟

- هل أنت منطقي، عندما تقول صدفة! هل صدفة موجود في قاموس المنطق؟

- كفانا حديثا، أنا لم أعد أتحمل..

عزلّ إمران انفعال أعصابه ثم اقترح على عمر أن يذهبا إلى المقهى، ليعملا مجدداً بعد توقفهما لفترة، دامت ثلاثة أيام.

المقهى ذاته، لم يتغير فيه شيء، عمل دائم، طاولات وكراس يجلس عليها الزبائن في كل مرة ويرحلون، ليتركوها وحيدة بين ثنايا جدرانها. يدخُلان الآن إلى المقهى، ليتوّجه عمر إلى مكتب المدير الواقع في نهاية الممر ويشرح له سبب غيابهما، بينما كان يمضيان، توقف إمران قُرب الممر لينتظر عمر عند خروجه من المكتب.

أخذ إمران يتأمل الزبائن، كان يتمعن بالنظر إلى فتاة وشاب كانا يجلسان قرب الحائط الزجاجي الذي يؤدي إلى الشارع، كان يركز نظراته في عينها التي تتحدث الكثير عن الحُب، وإلى لمعان الخواتم في يديه، كان يتخيل نفسه وهو جالس كهذهِ الجلسة مع حبيبته، وكأنه يستشعر بيده بينما يمررها على رأسها بهدوء، مشاهد تخيليّة بسيطة كان يحلم بها طوال الوقت.

يُمرر عينه إلى الزبائن، لتتجه إلى عائلة مؤلفة من رجل وامرأة وطفلة شقراء جميلة، يبدو أن تلك الطفلة كانت سر سعادة تلك العائلة، صوّب تركيزه إلى شفاهها المُتسخة ببقايا الطعام، كانت تبتسم وتضحك، وتحملُ بيدها ملعقة وتلعبُ بها وتبعثر الطعام هنا وهناك؛ كان أبوها يفرح بأفعال ابنته الوحيدة، والأم كانت تُقبلها كل دقيقة.

بينما كانت جوانب فمه تُشكل ابتسامة خفيفة حدّق بكامل حدقته في ثيابها الأنيقة، كانت تلبسُ فُستانا أزرق قصيراً عليه رسومات كرتونية، كان يود في تلك اللحظة تقبيلها، واحتضانها بشدة، لتزيل الهموم من قلبه وتملأه بتلك الطفولة الجميلة، التي حُرم منها.

يرنو بنظراته مجددا إلى شابٍ يائس، يشربُ القهوة بوحشية، لم يكن يستمتعُ بها، بل كان يشربها وكأنه يشرب كأس الماء أو النبيذ؛ لم يحترم هذا الرجل تلك القهوة، بل أهانها؛ إنه مثل تلك العرّافة التي لا تحترم

نقشة البُن المُرتسمة في قُعر الفنجان، فتبصمُ بإبهامها وتشققُ بقايا تلك اللوحة.

دقائق قليلة، حتى رأى ذلك العجوز يدخل من الباب الرئيس يتكئ على عكازته، تفاجأ قليلاً وكأنه طفل صغير أضاع والده ثم رآه، اتجه إليه فور رؤيته، كان يلبسُ ذات الحلّة، اقترب منه، حتى قال العجوز:

ـ أهلا إمران كيف حالك!

ارتبك قليلاً، لم يكن عقله يستطيع تركيب جملة واحدة ليقول له:

ـ من أنت؟

رد دون تردد:

ـ عجوزٌ مُسن، يحبُ الأسفار.

ـ أقصد ما اسمك، وكيف تعرف تلك المعلومات عني!

ـ لا وقت لدي الآن، سنلتقي مجدداً وسأخبرك بكل شيء في الوقت المحدد....

قاطعه إمران:

ـ ماذا تقصد في وقت المحدد! أنا لا أهتم بشيء، فقط قُل لي من أين تعرفني؟ وما قصتك معي؟

ـ أتيتُ إلى هُنا مُصادفة " حينما يسقطُ الواقع يحين الوقت "

ضحك إمران بسخرية:

ـ كم أنا غبي، أجادل شخصا مجنونا مثلك، ولا يسمع حتى.

أعطى العجوز ظهره إلى إمران ومضى إلى الشارع وقال:
- صديقك سيخرج الآن، وستُفصلان من العمل، أنصحك بقبول عرض عمر لك، وداعاً إمران!
بينما كان إمران مُستغربا من حديثه وواقفا في مكانه، سمع صوت الباب يُغلق بقوة شديدة، نظر إلى الخلف، إذ يكون عمر غاضباً يُتمتم مع نفسه:
- ذلك الغبي طردنا من العمل، يجب أن نخرج من هُنا..
لم ينبس إمران بكلمة واحدة سارع بمراقبة المارة في الخارج ليبحث عن العجوز، ثم ركض نحو الشارع ليرى ما إن كان هُناك أم لا، ولكن دون جدوى، كان عمر مستغربا من تصرفاته:
- هل جُننت!
حدق إمران في عين عمر:
- يبدو أنني جُننت حقاً، هل كنتُ أتخيل ما سيحدث!
- ماذا حدث معك، أخبرني.
- لقد رأيت ذلك العجوز، أخبرني أننا سنُفصل من العمل، وأنك ستقدّم...
نهى عمر حديثه:
- بدأت أخاف عليك، ستُجن يوماً.
مضى عمر باتجاه منزل إمران، كان غاضباً لفقدانه العمل، وكان همه الوحيد أن يجد حلاً آخر لهما؛ أمّا إمران فقد كان واقعا في دائرة

الشكوك، وكأن تلك الشكوك رمال متحركة تسحبه نحو باطنها كلما حاول التفكير "هل كنتُ أتخيل! من يكون هذا الشخص! هل جُننتُ حقاً".

وصلا الاثنان إلى المنزل، لم يكن إمران بوعيه فقد كان شاردا ولم يكن يدرك ما يفعله حينها، فتح الباب ودخلا إلى المطبخ، لتراهما الأم وتقول وابتسامة جميلة تعلو محياها:

- عُدتما!

رد عمر غاضبا:

- لقد طُردنا من العمل يا خالة!

تركت كل ما بيدها وأتت إليهما لتفهم ما حصل:

- كيف! ولماذا؟

- بسبب غيابنا لثلاثة أيام، وأنتِ تعلمين ما حصل معنا.

واست الأم حزنهما بابتسامة، لتحمل ذلك الحزن على رفوف تلك التجاعيد الجميلة:

- لا داعي للقلق ستجدان عملا آخر، سأكمل الغداء وأترككما قليلاً

قال عمر مُبتسماً:

- سنحاول أن نجد حلاً.

قال إمران بينما كان شاردا في ابتسامة عمر:

- يبدو أنك لقيت حلاً، بهذه الابتسامة.

- فعلا لدي حل جنوني، لم يكن يخطر ببالي قط، سنذهب بعد قليل إلى منزل جدتي وستساعدني في تنظيفه وهناك سأخبرك كل شيء.

عاد إمران إلى وعيه مجددا، كان ذلك السؤال يخطر بباله في كل ثانية "كيف عرف العجوز ما سيحدث"، دقائق حتى قال له:

- جيد إذا، هل لديك عرض لي وما هو؟

تفاجأ عمر قليلا وقال بِحيّرة:

- كيف عرفت أني سأقدم لك عرضاً؟

- اعتبرتني مجنونا، عندما تحدثت إليك قبل قليل.

- لا تتحدث مجددا عن ذلك العجوز، لو تحدثت لا أريد سماعك ولا أهتم بما قلته.

توقف إمران للحظات عن الحديث، وبدأ ينظر إلى عمر بكل سخافة، كيف يمكن للبشر ألا يفكروا! أقول له شيئاً يحدث بالمستقبل بعد ساعات وهو لا يبالي! كيف يمكن لإنسان مثله أن يعيش في هذه الحياة! ثم قال باستهانة:

- هل تحب الملح مع الطعام؟

ضحك عمر دون الشعور لما رمز إليه إمران:

- أنا أتساءل دوما، أمك تمتلك عينين زرقاوين وأبوك يملك بشرة بيضاء، لم أنت لست مثلهم؟

- رُبما لستُ من هذه العائلة.

ضحكات عمر كانت تستفزه لدرجة أنه كان يريد أن يصفعه بقوة شديدة.
بعدما أكل الاثنان اتجها صوب منزل جدته، لم يكن يتحدثان في الطريق كثيرا، كان إمران يفكر بما حدث اليوم وعمر كان يخطط لذلك العمل.
وصل الاثنان إلى باب المنزل، تفاصيل الباب كانت تحرك قلبه الثابت، فتح عمر الباب وقلبه يخفق بقوة وكأنه سيخرج من قفصه الصدري، بعد دخوله تخيل جدته وهي جالسة على العشب المستلقي على أطراف الاسمنت، ليتحصن بقوة شديدة ويتخطى تلك التخيلات.
تذكر إمران حديث جدته، وكل تلك التفاصيل الصغيرة التي أباحت لسانها بها أخذت جملتها تثير فضوله "تذكروا جيداً تاريخ ميلادكم فهو مهم في بعض الأحيان".
أحس عمر به فقد كان إمران ينغمس في تفكيره ويغرق في أعماقه المظلمة، جلس عمر أمامه على كرسي معدني كان موضوعا أمام طاولة وحيدة في حديقة المنزل:
- هلا وعدتني بشيء!
رد مستغرباً:
- سأعرض عليك شيئا يجب أن تقبل به.
- لا أستطيع أن أقبل أي شيء دون معرفته.
واصل عمر:
- ما رأيك أن نحوّل هذا المنزل إلى مطعم كلاسيكي؟

ضحكات إمران حينها غسلت أوجاعه المتراكمة في قلبه ليقول عمر:
- لم تضحك؟
- لأنك غبي من أين تأتي بهذه الأفكار؟
- أنا لا أمزح والفكرة رائعة!
- هل أنت جاد؟
- نعم ولم لا....
- نحن لا نملك ثمن كتاب جامعي وأنت تتحدث عن مشروع ضخم بهذا الحجم!
- لا عليك لقد فكرت بالأمر قليلا؛ لو بعنا منزلك القديم.....
- وبعتني معه؟
- لا تقاطعني كما تعرف إن منزل جدتي يتكون من طابقين، نستطيع أن نعيش في الأعلى ونحوّل الأرضية إلى مطعم...
- وماذا بعد؟
- هل أعجبتك الفكرة؟
هز إمران رأسه بسخرية كبيرة، ولم ينبس بكلمة واحدة، فقد كان يستمتع بسخرية عمر، فقد ظن أنه يمزح حتى صار الموضوع جدياً:
- لم لا تتكلم أنا جاد بكل ما قلته.
- كيف جاد؟ هل فكرت بالمبلغ الذي نحتاجه؟

- نعم بيع منزلك سيكون جيداً بنسبة لهذا المشروع، ونحن سنتشارك المنزل والمطعم أيضا ونسكن معا كعائلة واحدة!

- أهذا هو العرض الذي كنت ستقدمه!

- نعم.

فكر إمران بحديث العجوز:

- أتعلم إن ذلك العجوز قال لي وافق على عرضه!

- أرجوك كفاك تفكيراً بذلك العجوز وحديثه.

- حسنا، دعنا من هذا العرض الخيالي، يجب علينا البحث عن عمل آخر من اليوم.

- لن أبحث عن العمل، قم لنذهب..

- إلى أين؟

- إلى والدك لنناقش معه الفكرة.

- يبدو أنك متحمس لهذا المشروع، ولكن للأسف من دون فائدة.

- لو بقيت هكذا لن تنجح بحياتك، دعنا نُقامر قليلاً مع الحياة إمّا نفشل أو ننجح..

أخذ إمران الفكرة بعين الاعتبار وبدأ يتأمل زوايا المنزل المهترئة:

- منزل جدتك يحتاج إلى ترميم وقد يكلف هذا الكثير، ثم إنه يقع في الضاحية والخلاء أعتقد أننا سنفشل.

- لو آمنت بفكرة ما لن تفشل صدقني، قُم لنذهب.

مضى الاثنان إلى والد إمران لمناقشة الأمر كان عمر متحمسا ويرسم بمخيلته تفاصيل المطعم وألوان الحائط وترتيب الكراسي والطاولات وبعض تفاصيل جانبية، كان إمران مصغيا إليه ومتشائما بنفس الوقت، بعد نصف ساعة من الحديث المتواصل وصل الاثنان إلى والد إمران وبدأا بطرح الفكرة عليه، كان عمر يعمل جاهدا بإقناعه أما إمران فقد كان مصغيا إليه دون أن يحرك شفتيه، بعد انتهاء عمر من الحديث قال ليبراف:

- إنها فكرة جميلة، ولكن لن نستطيع بيع هذا المنزل يا عمر.

- لماذا لا تستطيع أليس مُسجلا باسمك!

- نعم، ولكن سُجل المنزل في المحكمة على أن يظل ثابتا، أي إنه يمنع عليّ بيعه بحكم القانون!

أحتار إمران:

- كيف!

- لقد سجل جدك هذا المنزل باسمي، ومع العقد التسجيل كُتبَ التالي "يُمنع بيع متر واحد من المنزل".

غضب إمران قليلا:

- لم يفعل جدي هكذا؟

- قصة طويلة سأخبرك بها يوما ما.

- ولم ليس اليوم، أنت حتى لم تخبرني من هو جدي وما اسمه.

- يا ولدي، التاريخ في هذا المنزل بشع، ولن أسمح لأي أحد أن يفتح هذا الدفتر، أمّا عن فكرة عمر فإنها جميلة وسنعمل على هذا المشروع.

سكت إمران، فهو يعرف أن حديثه لا جدوى منه، وأن أباه عنيد ولن يتحدث أي شيء.

- كيف سنبدأ المشروع دون بيع المنزل!

- أنا وغيثار سنسحب قرضا من البنك ومع بيع أساسات المنزل القديمة سنبدأ بالمشروع.

يتحمس عمر:

- عظيم، يبدو أن المشروع سينجح.

- غدا باكراً سأذهب إلى البنك وأسحب قرضاً، ويجب أن نسجل كل شيء مشترك بيننا!

- لم أفهم.

- ليس من العدل أن أسجل المنزل والمطعم باسمي، يجب أن تظل شريكا وسنحسب فرق المال بين المنزل والمشروع، يجب أن تأخذ حقك كاملا من المنزل، أي بمعنى آخر سنستدين منك المال حتى نعمل في المطعم ونسد ذلك الدين فيما بعد.

- الآن فهمت، لا أريد أي شيء، ولا أي مال سنسكن معا كعائلة واحدة ولا أريد سوى هذا الأمر.

- لا يا بُني ليس من العدل أن يكون كل شيء مسجلاً باسمي فقط.

- كما تريد.

مضى الاثنان إلى غرفة إمران كان عمر فرحا بهذا المشروع أمّا إمران فقد كان جالسا على كرسيه ويهز قدمه كعادته، كان غاضبا من قصة جديه قليلاً حتى اقتحم عمر غضبه:

- افرح قليلا لم أنت متشائم دوماً.

- دعني وشأني يا عمر.

- عجيب أمرك، أنت تعرف والدك أكثر مني.

صرخ إمران في وجه عمر وكأن النار تلتهم شفتيه:

- قلت لك دعني وشأني.

بعدما ساد الهدوء عليهما لعدة دقائق، تساءل إمران:

- هل كُنت ستتحدث عن تلك الفتاة أم إني تخيلتُ ذلك؟

استشعر عمر بغلطته، فقد نسي أمر آيلا:

- كيف نسيت هذا!

- ماذا نسيت أخبرني؟

- لقد قابلتها وإنها فتاة لطيفة جداً.

- إذا كنت تمزح لن أسامحك أطلاقاً.

- أقسم أني قابلتها.

غير إمران جلسته، وبدأ بالإصغاء:

- لا أعلم مين أين أبدأ، هل أبدأ بالأخبار الجيدة أم السيئة؟

- لا تقل إنها تُحب أحدا آخر؟

- لا الموضع ليس هكذا، إنها لا تستطيع الكلام.

- لم أفهم!

قال بغصة:

- أنا أسف ولكنها بكماء.

نهض إمران من الكرسي ووضع يده على النافذة، كانت الدموع على وشك أن تنهمر من عينه، وكأنها منحصرة خلف جفونه الذابلة:

- التعاسة تُحبني، ولن تتخلى عني إطلاقاً.

- لا تقلق يا إمران ستُحب غيرها لو لم تتقبلها هكذا.

- لو أحببت غيرها سأصيرُ أبكماً مثلها، لا يعرفُ لساني أن يُعبرّ عن الحُب بداخلي.

- أنا مُستغرب حقا.

- ولم أنت مستغرب!

- كيف يمكن للمرء أن يحبّ مرتين أو أكثر؟ أنا أراك ولن أصدق أنك ستحب أحد غيرها.

- لا تصدق رجُلاً أحبّ مرّتين، فالحُب يأتي مرة واحدة فقط.. وأنا أعيش لهذه المرّة.

- يا إلهي كم أنا أحمق.

رمقه باستغراب:

- هل هناك شيء آخر؟

- لا ولكني وعدتها أني سأراها بعد يوم من مقابلتنا ولم أذهب.

جلس إمران بجانب عمر على السرير:

- لا تقلق من هذا الأمر أخبرني كل شيء، متى قابلتها وكيف، ولم قابلتها؟

بدأ عمر بسرد الحديث وكان إمران يصغي بشدّة وكأنه يصغي ليوم وفاته، كان يتأمل جميع التفاصيل الصغيرة ووصف عمر لها، يتأمل الآن وجهها الجميل، ويديها الناعمتين وهي تكتب، يتخيل بكل طاقته ثيابها وشعرها التي تجعلُ من إمران غارقاً بين تلك الخُصل.

كان يتخيل تلك التفاصيل وكأنه آلة زمنية تعود به إلى الوراء ليراهما جالسين على ذلك المقعد.

ينهي عمر حديثه بينما كان يفك ساعته المعدنية:

- وهذا كل شيء ما رأيك!

كان إمران يبتسم وأمام تلك الابتسامة قُضبان حديدية لا تبوح بوجعه، ليحرك لسانه بقوة:

- الصديق الحقيقي هو من يفعل ما فعلته؛ شعوري يتناقض مع بعضه وكأن تلك المياه الصافية تعكرت بوجود القليل من الوحل.

- لم أفهم إلام ترمز بتشبيهك هذا!

- كنتُ أحلمُ بها كُلّ يوم، وخصوصا عندما أفرشُ جسدي على هذا السرير؛ كنتُ أتأمل صوتها ثم شفتيها وهي تُعبر عن الحُب، ثم ضحكاتها والآن ينكسر غشاء ذلك الحلم الهش بكلمة واحدة "بكماء".

- هل ستتخلى عن حبك بسبب كلمة واحدة؟

- لا أبداً أنت لم تفهم قصدي، ولن تفهم دعك من هذا الحديث هيء نفسك للخروج.

- إلى أين؟

- إليها، لم ينته دوام الجامعة بعد، ربما تكون هناك حتى الآن!

- أنت جاد بما تقوله؟

- بكل تأكيد.

- وأنت! لن تأتي؟

- لا أستطيع المجيء، ثم إنها لم تتعرف إليك جيداً.

- أنت ضعيف في رؤيتها وجهاً لوجه، أليس كذلك؟

نظر إليه بخجل ظاهر على مقلتيه:

- ومن لا يضعف حين يُحب.

- نسيتُ شيئاً وأنت لم تسأل!

يرد بحدة:

- قُل بسرعة ما نسيته!

- عُمرها!

تنفس إمران بقوة شديدة وكأنه خرج للتو من رحلة غوص في البحر:

- يا إلهي كم خفت.

ضحك عمر:

- وكأنك على حافة السقوط، فإذا بي ألقي بك في الهاوية.

- تزاحمت الأفكار في مُخيلتي عندما قلت "نسيت شيئاً".

- وكأنك لا تبالي بعمرها؟

- لا شيء يُقاس بالعمر، لا التفكير ولا الوعي ولا حتى الحُب! فلم أُبال؟

- ولكن مُجتمعنا لا يتقبل فكرة زواج رجل من فتاة يكبرها أعواماً؟

- هذا "مُجتمع" وهذا أنا؛ وكما لا يتقبل أفكاري، وأنا أيضا لا أتقبل جميع أفكاره ثم أنني كنتُ أتوقع أنها تكبرني أعواما لذلك لا يهمني؛ عندما تتخطى المرأة سن البلوغ، ليس من حقك السؤال عن عمرها، إنك تُهينها هكذا.

ابتسم عمر:

- عجيب أمرك، من يسمعك تتحدث عن المرأة هكذا سيقول لنفسه، إنك تتحدث إلى النساء كُل يوم.

- المرأة هي الحياة، فلو فهمت الحياة فهمت المرأة؛ أمي امرأة، وأنا فهمت الجميع من خلالها.

- أمك امرأة ولكنها ليست كلّ النساء.

ينهي إمران الحديث:

- كفاك حديثا، اذهب الآن، وأنا سأنتظرك هُنا ريثما تعود.
مضى عمر إلى الجامعة تاركاً خلفه إمران تائهاً مع الوقت لوحده، فقد كان مشغولاً بتخيلاته الذي تحوله إلى إنسان خيالي ينقذ نفسه من كتاب الأساطير، كان يمشي في غرفته كشخص يبحث عن شيء ما ولا يجده، كان يحبس أنفاسه وكأنه الأخيرة في حياته ليجلس على كرسيه ويهز قدمه اليمنى.
يمسك الآن بعض الأقلام ويرميها مجددا على الطاولة، فعل هذا إحدى عشر مرة، وكأنه يُعذب تلك الأقلام، لينظر إلى عقارب الساعة بعد رمي كل قلم ولكن دون جدوى "الساعة تتحرك بسرعة ولكن لو انتظرت شيئاً ستمشي وكأنها سُلحفاة تلاحقُ أرنباً".
يتناول الآن دفتره ويفتح على آخر صفحة؛ كانت آخر صفحة بنسبة لنا، عاهرة يمكن للجميع ممارسة الجنس معها ويمكن للجميع استخدامها أو يمكن أن نقول صفحة تُباح عليها كل شيء؛ إذ نحول تلك الصفحة إلى لوحة فنيّة سيئة، كُنا نرسمُ عليها وجهاً مُضحكاً بأنفٍ كبير وعينين لا تشبهُ الأعين أو نكتبُ عليها بعض الخواطر والنكت الجديدة؛ أمّا بالنسبة لطالب مدرسي فقد كانت هذه الصفحة لمواعيد المدرسيّة والحصص الدراسيّة أو للألعاب التي تحتاج إلى ورقة وقلم، وغالباً ما كانت تملؤها الخطوط العشوائية والأحاديث الجانبية داخل الصف حتى تمتلئ

ويرميها دون عناء، ليفتح صفحة أخرى ويبدأ من جديد وكأنها هواية عالمية لم تُسمّ بعد.

يحاول أن يكتبُ شيئاً، أو يتناسى الوقت الذي يُقطع عظامه، كنجار يُقطع شجرة الصنوبر ليصنع منها مطرقة تُوقف الضجيج في قاعات المحكمة لينطق القاضي بعدل حُكم الإعدام على المُتهم.

وصل عمر الآن إلى الجامعة وحدد مساره إلى تلك الشجرتين ليراها جالسة وحيدة وهي تتأملُ الخلاء، ليشق طريقه مُتعثرا بين الحصى والرمال فقد كان الطريق الاسمنتي ينتهي قبل وصوله إلى ذلك المقعد الوحيد.

قبل حوالي سنة واحدة شُيّدت الجامعة بمخطط جديد، كان هذا المخطط ينتهي لهذا الحد، فبعد هذا الطريق يبدأُ الخلاء والأحجار الكبيرة والحصى والقليل من الأشواك، فلم يدخل هذا المقعد التخطيط الجديد؛ فقبل إهمال تلك المنطقة كانت الزهور تزدهر جمالاً هناك والأعشاب كانت تُقص بانتظام شديد حتى لا تطول، لتشد الطلاب إلى تلك المنطقة فيستلقون على تلك الأعشاب ويتأملون الشجرتين ويُزخرفون أسماءهم عليها، لتبقى وحيدة بين الخلاء والحصى الآن.

يُركز عمر نظراته إلى شعرها المستدل على خشبة المقعد، كانت خصلات شعرها اللامعة تجرح غشاء المقعد، وكأنها سكاكين ناعمة تُداعب الخشبة بقسوة.

قبل وصول عمر إليها، سمعت آيلا صوت وقع قدم على الحصى، لتلتفت إلى الخلف وتتفاجأ بعمر، حركت يدها عالياً لتلقي التحية على عمر:

- كم أنا مسرور للقائكِ مرة أخرى.

تحرّك سبّابتها وتشير إلى نفسها "وأنا أيضاً" يجلس عمر بجانبها:

- من الجيد أن تتذكريني لحد الآن.

تخرج دفترها من حقيبتها وتفتح على تلك الصفحة التي كتبت في أول سطر "وداعاً" ليُجمد قلب عمر في مكانه "يا إلهي منذُ أن كتبت لي وداعاً لم تكتب قط!":

- ألم تتكلمي مع أحد منذُ أن تقابلنا؟

تحرك رأسها يميناً ويساراً، لتكتب على دفترها:

- أنا أتحدث مع والدي بالإشارة، وليس لدي أصدقاء، لذلك لم أكتب أي شيء منذُ أن تقابلنا.

علامات الغرابة ترسمُ ملامح فاضحة على وجهه:

- والدكِ!

تبتسم آيلا بِرقة شديدة تمسح الأوجاع من القلوب:

- أقصد عمي! فهو بمثابة والدي.

- وكيف تتحدثين بالإشارة معه، هل يفهم ذلك؟

- إنه طبيب في الجراحة ولديه هواية بتعلم الأشياء الغريبة، فهو يُتقن لغة الإشارة وهو من علّمني إياها منذُ سنوات، واسمه أرمن.

يقول عمر متأسفاً:

- أنا أعتذر منك ...

استغربت آيلا ورسمت إشارة الاستفهام على مفكرتها وقلّبت اتجاه الدفتر ليراها عمر:

- وعدتكِ أن ألتقي بكِ في يوم التالي ولكن لم أستطع، توفت جدتي.

غُصتْ آيلا لسماعها هذا الخبر:

- أنا آسفة لسماعي هذا الخبر، لا داعي للقلق أنا لم أزعل لأنك لم تأتي، بل لأني لم أراك هُنا.

- هل تسمحين لي أن أسألكِ عن الحادثة؟

ترسمُ دائرة حول إشارة الاستفهام التي رسمتها منذُ قليل وتنتظر رده:

- أقصد، كيف تحولتِ إلى بكماء، أمن جراء الحادثة؟

- عندما أمرض جسدي ينهار كلياً، وكأنه بناء يُهدم بهزة أرضية قوية؛ فالحرارة مثلا ترتفع لدرجات عالية عندما أُصاب بدفقة برد...

أقترب عمر منها ليرى كل ما تكتبه فوراً، أمّا آيلا فقد كانت تستمر بالكتابة دون توقف:

- أتذكر ذلك اليوم جيداً، بعد الحادثة كنتُ على السرير في المشفى وحرارتي عالية، كنتُ أشعر بدمائي والنار تلتهمها ببطء شديد، أمسكتُ

بطرف السرير الحديدي واستحضرت قوتي لأقوم وأطمئن على والديّ..

توقفت آيلا عن الكتابة، كان وجهها يختبئ خلف شعرها، ليثير فضول عمر "هل هي تبكي؟" حرّك شعرها بخجل شديد وقبل أن يُظهرَ وجهها بعدّتْ آيلا يده عن شعرها بقوة لتكتب على دفترها:

- توقف أرجوك.

ابتعد عنها عمر وشعر بخجل شديد يُمزق وجهه إلى نصفين:

- أنا حقا آسف، ظننتكِ تبكين، ثم لا أعلم ما حدث لي وكيف سمحتُ لنفسي أن ألمس شعركِ وأبعده عن وجهكِ.

تنظر إليها آيلا وعيناها محمرتان كانت غاضبة لتلك الحادثة لم تكن تبكي، بل كانت الدماء تسيلُ إلى عينها لشدة حزنها وتذكرها ذلك الموقف، لتكتب مجدداً:

- أنا آسفة، حزنت عندما تذكرت تفاصيل هذا اليوم..

- الذنب، ذنبي لوحدي عندما سألت.

تكتبُ مجدداً:

- لو كنتُ مكانك لسألت نفس السؤال؛ في كل مرة أقول لنفسي يجب أن أكون قوية، ولكني أضعف عندما أتذكر شيئاً مؤلماً..

- ولكن القوة لا تعني عدم الإحساس!

- دعني أكمل لك..

أمسك عمر بقلمها وقال:

- هل تودين ذلك حقاً؟

لمحت تعابير وجهه بخلسة وسطرت:

- بعدما قمتُ من السرير، كنتُ أستند إلى الحائط وأمشي ببطء شديد كانت قدمي اليمنى قد كُسرت من الحادثة، ثم بعد لحظات دخلت غرفتي مُمرضة لتُخبرني إن والدي قد توفي وأمي في غرفة العمليات...

كان عمر يتخيل تلك المشاهد بحزن شديد فيعصر عينه خوفاً أن تنهمر دمعة واحدة فتنهار آيلا أمامه، كان يتذكر والديه وجدته، كان يتألم دون أن يلفظَ كلمة واحدة.

- كنتُ هنا يائسة لا أشعرُ بشيء، بكيت لعدة ساعات مُتواصلة حتى فقدتُ الوعي، وبعدما أفقت من تلك الغيبوبة كنتُ اسأل عن أمي ولم أرَ أي إجابة من الأطباء، وبعد أن أصريت لساعة كاملة، صُعقت بموت أُمي أيضاً، تمسكتُ بقشة ضعيفة من الأمل وفكرت "رُبما مُزحة من أبي وأمي، رُبما يكذب الطبيب" الكثير من الأفكار كان تجتاح عقلي؛ في تلك اللحظة حاولت وبدون وعي أن أسال ما إن كان جديا بما يقوله، فلم يستطع لساني أن يُنطق أي حرف، حاولت جاهداً ولكن دون جدوى ولحد الآن لم أستطع الكلام، هذه هي قصتي.

يقول عمر بحزن أفصح عنه وجهه:

- يا إلهي كم تألمتِ، وكم ندمت لسؤالي.

كانت هذه أول مرة تبوح آيلا بقصتها لشخص ما، لقد شعرت بالأمان مع عمر، كانت تثق فيه لسبب ما لم تعرفه، وكأنها كانت على معرفة سابقة معه، لتبوح كل ما اعتمل في قلبها له:

- لا داعي يا عمر.. الحُزن يبقى والفرح يمضي.

غيّر عمر طريق الكآبة بحديثه:

- لم اخترتِ هذا المكان للجلوس فيه.

حدقت في عينيه وابتسمت، ثم التفت لترنو بنظراتها إلى الشجرتين.

كانت الشجرتان بالنسبة للطلاب رمزاً للحُب في الجامعة، فقد كانت إحداها تُميل بأغصانها إلى الأخرى وتلتف حولها وكأنهما عاشقان يحتضنان بعضهما بعد وقتٍ طويل من الاشتياق فيتحجر حُبهما ويبقى أبدياً، ليسرد قصة حُبهما المؤلمة بأوراقها الصفراء الجميلة التي تتساقط واحدة تلو الأخرى وكأنها تحصي أيام الاشتياق، لكل ورقة يومٌ واحد.

كان الطلاب يجلسون تحت ظلها الواسع وينتظرون تلك النسمة الباردة التي تدبُ الحياة في الحجارة لتنعش قلبهم الميت منذُ سنين؛ العاشق كان يُشبهُ نفسه بالشجرة المائلة إلى الأخرى، واليائس كان يسردُ قصة حُبه الفاشلة، والبغيض كان يجرحُ غشاءها الرقيق ليكتب اسمه وتاريخ ميلاده، أمّا الحالم فقد كان يكتب أمنيته على ورقة صفراء ويربطها بقطعة قماشية ليعلقها على أغصانها، وكأن تلك الشجرة إلَهة في الحُب تحقق كلّ الأمنيات.

يُقاطع عمر تأملها ويتساءل مجدداً:

- لم تُجبني بعد!

تقلبُ الصفحات لتصل إلى صفحة مُقسمة إلى قسمين؛ قسم رُسمت عليه الشجرتين وبجانبهما الزهور والأعشاب الجميلة وعاشقان يقبلان بعضهما، والآخر تلك الشجرة نفسها بجانبها زهور ذابلة انحنت لقساوة الربيع عليها، وبعض الصخور المزعجة والأشواك.

فرح عمر بجمال موهبتها، فقد كانت آيلا مبدعة بالرسم وربما هي الهواية الوحيدة التي أتقنتها طيلة السنوات:

- أنتِ لديكِ موهبة رائعة..

عادت آيلا إلى الصفحة السابقة:

- بين الرسمتين عام كامل، من كان يُصدق أنها ستُهمل هكذا؛ أنا مثل تلك الشجرة عام غير مسار حياتها، وأنا ساعات غير حياتي كلّها.

يقول عمر في رأفة:

- وأيام عرفتكِ بصديق لن يتركَكِ يوماً.

أبتسمت آيلا لتكتب مستفسرة:

- كلّمني عن نفسك قليلاً.

ضحك عمر:

- أتعلمين لقد نسيت لم أتيت، قبل أن أبدأ أود طرح سؤال هل تُحبين أحداً؟

تطلعت في دفترها وتوقفت لبضع ثوانٍ:

- لم تسأل؟

- كما قلتُ لكِ، صديقي يُحبكِ بل يعشقكِ، أنتِ حُلمه الوحيد في هذه الحياة.

- لا أعلم ماذا أقوله لك، ولكني لن أحب مرّة أخرى، أخبر صديقك أن يبحث عن فتاة أخرى تناسبه.

- أفهم من ذلك، أنكِ كُنتِ تُحبين في السابق؟

- نعم، كنتُ أحب ولكنه كان غبياً، لا أود التحدث عن هذا الموضوع.

- لن أتقبل منكِ هذا، أعطه فرصة ليشرح لكِ حُبه، ربما تقتنعين.

تتوقف آيلا قليلاً لتكتب بعدها:

- أنا حقاً آسفة ولكن لا أستطيع.

حاول عمر بكامل طاقته إقناعها؛ بعد عدة محاولات اقتنعت آيلا بلقائه ولكنها لم تؤكد أنها ستحب مرة أخرى ليقول فكاهيّاً:

- فهمت الآن، أنتِ مثل الفتيات اللواتي تعصرن قلوب الشباب حتى توافقن على حُب شاب أليس كذلك؟

تبتسم آيلا وتكتب بسخرية:

- الشباب مثل كومة من الخيوط عندما يُصارحون بحبهم لفتاة ما؛ تُفكر تلك الفتاة حينها هل تستطيع حياكته! وصنع منه وشاحاً يُدفئها في شتائها

البارد أم لا؟ وكما تعرف بعض الخيوط قاسية والبعض هشة، والبعض لا تصلح حتى أن تكون خيطاً.

يضحك عمر بشدة:

- يا إلهي، أنتِ وإمران تشبهون بعضكم لحدّ ما!

- لم تخبرني، منذُ متى وأنت تعرفه؟

- خمسة عشر عاماً ونحن أصدقاء بل إخوة.

- جميل أن تمتلك صديقا يقف معك خمسة عشر عاماً كاملاً إنكما صديقان نادران جداً.

بعدما أنهى قصة صداقتهما وطباع إمران الحادّة وبعض مواضيع ساخرة حصلت لهما في الجامعة، ضحك عمر فجأة:

- كم عمركِ؟

استغربت منه ودوّنت:

- لماذا تضحك؟

- عندما ناقشت مع إمران عمركِ، أجاب قائلاً "عندما تتخطى المرأة سن البلوغ، ليس من حقك السؤال عن عمرها، إنك تُهينها هكذا".

تضحك آيلا وهذه أول مرة تضحك فيها مع عمر، لتكتب بارتياح تغمد قلبها:

- معهُ حق بكل ما قاله؛ إن عمري ستة وعشرون عاماً، وِلدت في ٢٤-٤ - ١٨٥٣ وبعد ثمانية عشر يوماً سأصبح في السابعة والعشرين..

- سنحتفل معاً في المطعم الخاص بنا.

- أنا موافقة، هل لديك مطعم؟

سرد عمر قصته مع إمران، وقصة عملهما الشاق ودفع قسوط الجامعة، والعذاب الذي طحن أجسادهما كحبة قمح، بعدما انتهى من الحديث كتبت آيلا:

- لا أعرفُ ما أكتبه، كيف تحملتما كل هذا؟

- كُنا نتحمل ماذا عسانا أن نفعل!

- إنها حقاً حياة قاسية، ومن يقول غير ذلك يكونُ غبياً.

- أنتِ مُحقة، يجب أن أذهب الآن، متى يمكننا أن نلتقي؟

- سأسافر إلى قريتي في الغد؛ حسناً يمكننا أن نلتقي هُنا في يوم الثالث والعشرين، أي قبل يوم من عيد ميلادي، الساعة التاسعة صباحاً.

- ولكنه لن يتحمل كل هذا الوقت.

- من يُحب سيتحمل كل شيء يا عمر.

نهض عمر ليمضي صوب إمران، وقال ضاحكاً بينما كان يُصافحها.

- ستُعذبهِ من الآن. إلى اللقاء..

تهز برأسها ممازحة وتمضي باتجاه منزلها، فبعد وفاة والديها اقترح عمها بأن تسكن معه في منزله الكبير والخالي من السكان، لتوافق على طلبه وتنتقل إلى منزله بعد أسبوع واحد من مأساتها.

كان عمها طبيبا وجراحا مشهور في المدينة ومعروف باسم "أرمن" كان يُساعد كل من بحاجة إلى المساعدة وكل من يطلب منه؛ أحياناً كان يستقبل المرضى في عيادته ويعمل لهم العمليات التي يحتاجونها مجاناً نظراً لحالتهم المادية، فلم يكن يتخطى مبدأه المُختبئ تحت اسمه المعروف "الطب مهنة إنسانية وليست تجارية".

كانت آيلا تحبه حبا كبيرا وربما أكثر من حبها لوالدها، كان صديقاً لها وأبا يكتمُ أسرارها وأخاً يحميها كلما شدتها مصائب الحياة إليها؛ كانت تخبره أصغر التفاصيل في حياتها، أمّا والدها فقد كان قاسياً بعض الشيء ومتمسكاً ببعض العادات القديمة ولم يكن لديه الوقت الكافي لسماع ابنته؛ عندما أحبّت آيلا للمرة الأولى أباحت بسرها إلى عمها، لم تكن لديها الجرأة الكافية لتخبر والدها بذلك.

يستيقظ عمر على أصوات أقدام تأتي نحو غرفته، ليفتح عينه ويرمي نظراته سريعاً إلى ساعته "الساعة تجاوزت الخامسة والنصف وعمر لم يأت، أين هو الآن" يصيحُ بأعلى صوته:

- من هناك؟

يرد عمر بينما كان يدخل الغرفة:

- ألم تكن نائماً!

- أين كنت حتى الآن؟

بدأت ضحكات عمر تتعالى على صوته، ليبدأ بحركات إيحائية ساخرة:

- كنتُ في حُلمك.

يجلس إمران على كرسيه بخفة وكأن مياها باردة سُكبت عليه ليرتجف قلبه:

- هل وافقت؟ ماذا قالت؟ هل تُحب أحداً؟

يطرح الكثير من التساؤلات في ثانية واحدة، ليسخر منه عمر:

- من أين أبدأ؟

- من وطأة قدمك في الجامعة!

يسرد عمر حديثه مع آيلا ويجسد الشخصيتين في آنٍ واحد، وكأنه ممثل مسرحي يلعب دوران في نفس الوقت على تلك المنصة المسرحية ليقطع جُمل آيلا الرافضة لتلك العلاقة والموعد المتفق عليه من السيناريو.

كان إمران ينصت بحماسة شديدة ولديه رغبة شديدة في سحب الحديث من فم عمر بحبلٍ قاسي وكأنما يسحب جرّة من البئر، فيعطش قلبه ولن يرتوي إلا ليصل إلى آخر قطرة.

كان إمران سعيداً، وكأن أقدامه وطئت أرض الجنة التي كان يحلمُ بها، بينما كانت ابتسامته ترسمُ وجهاً مُختلفاً، يدخل الأب إلى الغرفة ليزف بخبرٍ آخر يسعد قلبه:

- لقد وافقوا على القرض وأخذت المبلغ، غداً سنبدأ في العمل.

يقول إمران بينما كانت عيناه ترقصان من الفرح:

- خبران سعيدان في نفس اليوم!

- ما هو الخبر الأول؟

- لا شيء، غداً سنذهب معا إلى ذلك المنزل ونغير جميع تفاصيله.

يرد الأب ممازحاً بينما كان يمضي إلى غرفته:

- حسنا سنراك كيف تعمل في الغد.

جلس عمر بجانب إمران ليشرب الماء من الإناء الموضوع على الطاولة، ليتساءل إمران:

- أخبرني يا عمر، متى سألتقي بها؟

- قبل يوم من عيد ميلادها!

- ومتى عيد ميلادها؟

- تاريخ ميلادها هو ٢٤- ٤- ١٨٥٣ أي سنتقابل في ٢٣.

يستغربُ إمران قليلاً:

- إنها أكبر مني بستة أعوام وثلاثة أيام!

- هل ولدت في السابعة وعشرين من هذا الشهر؟

- ألم تكن تعرف!

- بالكاد أتذكر ميلادي.

- ولكن بقي الكثير على مقابلتها، ماذا سأفعل لذلك الوقت!

ضحك عمر:

- قلتُ لها ستعذبهِ من الآن فبرق أسنانها!

يبتسم إمران تحت حُبهِ الفاضح الذي لم يكن يفارقه طيلة تلك الأشهر، ليكشف عمر غطاءه.

يتبادلون الحديث عن المطعم، أفكارٌ جديدة تعصر مخيلتهم ليطرحوها على تلك الطاولة التي تحولت إلى مُفكرة للعمل؛ يقترح عمر شراباً جديداً تجذبُ الزوار من كل المناطق، أمّا إمران فقد كانت لديه فكرة أفضل:

- أمي تطهي كعكة لذيذة بمكونات بسيطة جداً وبنكهة غريبة وبعض من الأطعمة الشهية التي لم أجد لها مثيلاً في المطاعم.

يغفو الاثنان والأفكار تجتاح مخيلتهم كسربٍ من الطيور المهاجرة تخترقُ السماء بأجنحتها.

تنبلجُ الشمس الآن خلف تلك الغيوم الشاحبة التي تركتهم الرياح خلفهم، يستيقظون تحت حماسة المشروع مُعلنين حلمهم الذي بات على وشك التحقق، يمضي الأب مع عمر ليُسجل الأوراق الرسمية المطلوبة منه ليمر بعدها إلى محلات الطلاء والأعشاب الاصطناعية والإنارة؛ أمّا إمران فقد أزال ذلك الجدران المصنوع من النبات "قصب السُكر" اليابسة الذي عزل المنزل على الخلاء، ليُكبّر مساحة المطعم.

فتح إمران الجدار بين المنزل والبرية التي سكنتها النباتات العشوائية والأشواك الضارة وبعض الجحور للقوارض التي أخذت تلك المساحة أرضاً لها، لينتزع تلك الأشواك والنباتات من جذورها بشقاء ويغلق

جميع الجحور ليرسم بعد تنظيفه خطوطا مستقيمة تُشكل مربعاً لجدار يحدد مساحة المطعم.
يأتي الأب الآن حاملاً بشاحنة صغيرة جميع مُستلزمات المطعم من كراس وطاولات وطلاء وإنارة وسور معدني وأعشاب اصطناعية ليغطي ذلك التراب الأحمر الذي نظفه إمران قبل وصوله.
فرشَ إمران وعمر تلك الأعشاب التي كانت ملفوفة على بعضها بشكلٍ دائري على جميع البقع الخالية، ليصير العشب ناعماً كنعومة غيمة في السماء ثم غرز مؤخرة السور المعدني في التراب على تلك الخطوط، ليضع إنارة على كل مربع في ذلك السور ويغطي معظمها.
يطلي الأب معظم الجدران بالأسمنت، وبنى في منتصف المطعم حوضا صغيرا وبداخله أنبوب معدني يخرج من فتحاته الماء مندفعاً إلى الخارج ليُشكل منظرا جميلاً؛ أمّا الأم فقد كانت تُغير هيئة المطبخ والغرف وترتب الطاولات والكراسي في جميع أنحاء المطعم.
تمر عليهم أربعة أيام حتى غيروا هيئة المنزل المهترئ إلى مطعمٍ جميل يتألف من قسمان، قسم في منتصف المنزل وقسم الخارجي للمنزل؛ يقول الأب بينما كان يجلس على طاولته بقرب الباب:
- انتهينا وأخيراً، بقي اسم المطعم والإعلان الذي سننشره.
يرد إمران والبهجة ترسمُ وجهاً طفولياً على وجهه:
- لدي اسم بالفعل "آيلا".

يضحك عمر بشدة بينما كان يضع كأسه أرضاً:

- آيلا؟

- ما المضحك في الأمر.

يستمر عمر في الضحك:

- لستُ معترضاً.

ترد الأم بغرابة:

- ولم هذا الاسم؟

- لا أدري ولكن أتوقع سيكون مثالياً لمطعم كهذا!

لم يختلف الأب على اسم آيلا بل اعتبره مثالياً، مضي فور انتهاء الحديث صوب الصحف اليومي ونشر الإعلان ليحدد يوم الافتتاح وهو الغد؛ يوم الافتتاح في سوريا كان بمثابة إعلان ذكي لجلب الزبائن، إذ يمكن للمرء أن يختار وجبته وشرابه مجاناً.

بعد نشره الإعلان، توافد الكثيرون إلى المطعم لتمتلئ جميع الطاولات والكراسي، حتى إن بعضهم اختاروا الوقوف ليتأملوا تلك المناظر ويسمعوا الموسيقا التي كانت تنبعث من مكبرات صوت المُعلقة على الأسقف.

كان الأب يعمل محاسباً في يوم الأول كان يستقبل الزبائن فقط، وعمر وغيثار كانا منشغلين في المطبخ لم تكن لديهما السرعة الكافية لجميع الطلبات لدرجة أن البعض انتظروا أكثر من نصف ساعة ليستقبل

طلبه، أمّا إمران فقد تقمص شخصية النادل، كان يجري بين الطاولات والكراسي بسرعة جنونية، لم يكن لديه الوقت الكافي ليستريح قليلاً، حتى إن زوايا فمه تعودت على ابتسامة دائمة، فقد كان يبتسم للجميع؛ البعض كانوا ساذجين بطلباتهم، والبعض كانوا يتآمرون عليه والبعض كانوا يسخرون من عمله، ولكنه لم يبال بأحد، كانت سعادته تغطي أفواه الجميع بمعطف سميك، إذ لا يخترقها الهواء منه أو الكلام.

تمضي الأيام والزبائن يكثرون شيئاً فشيئاً لينجح تلك الفكرة الصغيرة وتحقق أرباحاً تُحطم ثياب الفقر.

" لقد اخترعنا الفن لكي لا نموت من الحقيقة "

نيتشه

اليوم العشرون ـ ٢٢ أبريل ١٨٨٠
الساعة التاسعة مساء

طرقت السعادة أبواب قلبه من جديد، وأخذ ينسى شيئاً فشيئا كل متاعب الحياة وهمومها، لم يكن يعلم أنه سيدخل معتركا حياتاً جديداً، ويضيع معه إلى الأبد من أمور أخرى استجدت في حياته هذه المرّة، ليس من العمل، إنما من الحب الذي طرق باب قلبه، فبدأ ينسى الشقاء الذي كان يعيشه ليخوض تجربة لم يكن يتوقع أبدا أن تسوقه قدماه إليها.

يومٌ آخر والزوار يأخذون المطعم مكاناً مميزاً لطعامهم، فقد كانت بعض الأطعمة تحقق أرباحاً توفر دخلاً عالياً للعائلة منها كانت "طعام التنين" الذي اشتهر بمذاقه الحار الجميل، كان أكثر من يطلبونه هم من الكبار في السن وأعمارهم تتراوح بين الأربعين والخمسين عاماً و"العصفور الصغير" التي كانت تتألف من لحم الطيور المقلي بالطحين، وشراب "الموت" الذي يتألف من التوت الطبيعي ممزوج مع أعشاب أخرى تُشكل طعماً مميزاً.

بينما كان إمران يتجوّل بين الطاولات مبتسماً، رأى ذلك العجوز يدخل من الباب الرئيسي بزيه المعتاد، جلس على طاولة قُرب حوض المياه، ليقترب منه مُستغرباً:

- أنت مجدداً! لماذا أتيت إلى هُنا؟

يبتسم العجوز ليقول بصوتٍ مخنوق، مريض:

- أريد شُرب الشاي.

يغضب إمران ليتعالى صوته ويسمعه أبيه الجالس خلف طاولة المحاسبة قرب الباب:

- منذُ ذلك اليوم وأنا أفكر بك، بالكاد نسيتك لتظهر مرة أخرى... أخبرني من تكون ولم تلاحقني؟

يأتي الأب ويتساءل عن سبب صوته العالي، ليرد إمران:

- ليس هناك مشكلة يا أبي، إنه صديقي القديم ومزحت معه!

يحدق في هيئة العجوز:

- ما اسم صديقك هذا!

يرتبك إمران من إجابة على هذا السؤال، ليختار العجوز جُزافاً اسماً رائجاً:

- أحمد، اسمي هو أحمد تشرفت بلقائك.

يمضي الأب إلى طاولته دون أن ينبس بكلمة ليجلس إمران أمامه:

- هل اسمك أحمد، أم اخترت الاسم عشوائياً؟

- سأخبرك من أكون، بشرط ألا يعرف أحد ما سأقوله لك.

وافق إمران على طلبه وبدأ بالإنصات ليبدأ العجوز بسرد قصته عليه:

- اسمي فيهار.

- فيهار! ما هذ الاسم الغريب! وكيف أتأكد من أنك لم تكذب مثلما كذبت على والدي؟

- لو أخبرت أباك أن اسمي فيهار، لعرفني.

حدقّ في عينه، ليلاحظ فيهار تعجبه:

- أعلم أنك مندهش قليلاً، أنا كنتُ صديقٌ لجديك...

قاطع إمران حديثه ليقول بعجلة:

- جدايّ؟

- نعم، روهان وأسفر.

- ما زلتُ لا أصدقك.

- أنا لستُ هُنا لكيلا تُصدقني.

- حسناً، لنفترض أني صدقتك، لم تُلاحقني؟ وكيف عرفت أن عمر سيقترح مشروع المطعم؟

قال فيهار هزلاً:

- ألا تُقدمون الشاي هُنا؟

- لماذا لا تُجيب على الأسئلة؟

- سيحين الوقت لأخبرك.

يغضبُ إمران ليدفع بلسانه إلى الخارج، مهاجماً شرساً:

- لقد تحملتك بما يكفي، إمّا أن تخبرني الحقيقة وإمّا لا أريد رؤيتك مجدداً.

ينظر فيهار عينيه مباشرةً، لتظهر عيناه البائستان خلف قبعته السوداء:

- لم أنت غاضبٌ مني لهذه الدرجة، فلم أفعل شيئاً ليُغضبك؟

- أسلوبك المُستفز وغموضك المُتقصد هو ما يغضبني، أجب على أسئلتي.

- أي أسئلة؟

ينفر منه إمران مجدداً:

- هل تتقصد ذلك؟

- أهدأ يا ولدي، ألا تُلاحظ نبرة صوتك العالية؟

- لم تُلاحقني؟

- لم يحن الوقت بعد لتعرف ماذا يحدث في هذه المدينة.

يضحكُ إمران باستخفاف، لتنبعث من جسده أوجاعه المُعتملة:

- مدينة!

- توقعتك شخصا آخر، يستوعب الأمور بجديّة ولكني صُدمت الآن.

يضع يده اليُمنى على ذقنه ليحرك رأسه بسخرية تكاد أن تُمزق صبر فيهار، أمّا هو فقد كان يضعُ يديه الاثنتين على عكازته ليقول ببرودة:

- لو لم تكن الحجر الذي يوقف سيلان الدماء، لما كنتُ هُنا.

- سؤال آخر بلا إجابة...

- لماذا لمْ تُبال بجديك الاثنين؟

- لأني وبكل بساطة لم أصدقك "أسفر، روهان" أسماءٌ جميلة صنعتهما بإتقان من نسج خيالك.

يُنزل رأسه من جديد ليخفي عينيه تحت قبعته:

- يبدو أنك لن تستوعب إطلاقاً.
رد إمران غاضباً بينما كان يرج أقدامه:
- كيف يمكن للمرء أن يستوعبَ غموضك؟
- يا ولدي لو أخبرتك ما يحدث ستسأل المئات من الأسئلة لا أستطيع الإجابة عنها.
- أجب فقط على ما أريد سماعه.
- قلتُ لك، أنت الحجر الوحيد الذي سيسُد سيلان الدماء.
- ماذا تقصد بِحديثك المُتكرر، وعن أي دماء تتحدث؟
- هذا سؤالي، كم شخصاً تعرف توفي في يوم مولده؟
بُهِتَ إمران وتجمد في مكانه ليعيد تسلسل الأحداث التي وضع النسيان بصمته عليها "جدة عمر، ارمس العجوز" بعد حوالي دقيقتان يقول فيهار له:
- لماذا توقفت عن الحديث هكذا؟
- هلا كررت ما قلته!
- هل شككّتَ بموتهم من قبل؟
- أتقصد موت أرمس وجدة صديقي عمر؟
توقف فيهار عن الكلام ليرتبك إمران قليلاً ويرد مُحتاراً:
- شككتُ قليلاً بموتهما ولكن بعدما أتعبني الشك، اعتبرته مصادفة لا أكثر، أخبرني من البداية عقلي لم يعد يستوعب حديثك.

- إنها الأحجية يا بُني، تقتلُ الجميع...

يحدقُ إمران به:

- ماذا.... أُحجية! هل أنت هُنا لتسخر مني؟

يُنادي زبون في المطعم بصوتٍ عالٍ:

- منذُ نصف ساعة طلبتُ القهوة ولحين الآن لم تُحضر لي، ما هذا المطعم الذي يتجاهل زبوناً؟

ينهض فيهار من مكانه لينهي حديثه مع إمران مُتجهاً إلى الخارج:

- أنا بجانبك دوماً وستراني عندما تحتاجني، أتيت إلى هُنا فقط لنكون أصدقاء مثلما كنتُ صديقاً لجديك...

- انتظر لحظة، متى يمكنني أن أراكَ مرة أخرى؟

- غداً، سأجدك حيث تنتظر.

يمضي فيهار إلى تلك الحياة ليتركه غارقاً بين الأفكار التي تُسيطر على عقله؛ بعد مضي حوالي خمس ساعات أغلق إمران باب المطعم وكأنه يغلقُ باب عالمه الخاص المحدود بين أربع جدران ليبقى وحيداً مع أفكاره الذي يضربُ عقله بمطرقة فولاذية فتهّر قواعد المنطق أمامها.

يدخل عمر تلك الغرفة الصغيرة المُشتركة بينه وبين إمران ليرى إمران مستلقيا على سريره شارداً يحدق في سقف الغرفة، قال عمر بينما كان يُعلق منشفته الزرقاء على الحائط:

- لم أنت شارد هكذا؟

- لا شيء فقط دعني وشأني.

قال ممازحاً:

- أنت متوتر لأنك ستُقابل آيلا غداً، أيُها الشقي...

- لا، أتعلم من كان هُنا اليوم؟

يجلس عمر على سريره دون أن يُبالي:

- ومن سيكون هُنا، زبون مثل أي أحد.

- كان زبوناً ولكن ليس مثل الجميع!

أهاجَ رد إمران فضول عمر:

- من كان هنا؟

- العجوز الذي حدثتك عنه من قبل، أتتذكره؟

يرد عمر والاستغراب يُقطع ملامح وجهه مثلما يقطع سكينٌ حاد ثمرة رمتها الأشجار أرضاً:

- وكيف لي أن أنساه، ماذا كان يفعل هُنا؟

- لم أستطع أيضاً إيجاد هذا الجواب، كان غامضاً وكأنه يحملُ أسرار الكون ويمشي بها علناً.

- كيف غامضاً أحياناً تُبالغ في وصفك له.

- لم أبالغ أبداً، يتحدث بغموض ويلتف حول المواضيع مثل الأفعى، وعندما يشرح لك شيئاً يصفعك ألف مرة حتى يخبرك قصده.

يضحك عمر من وصفه ليقول ساخراً:

- تشوقتُ جداً لأراه، ألم يُخبرك شيئاً عن مستقبلك مرة أخرى؟

- كفاك سخرية، أريد أن أتأكد من صحة حديثه، ولكن كيف....

- أخبرني ما جرى بينكم، لعلي أُساعدك قليلاً.. ألم يقُل لك اسمه، عنوان منزله، أي شيء نستطيع التأكد من خلاله؟

- أن اسمه هو "فيهار" وما جرى بيننا حتى الآن لم أفهمه ولن تفهمه أيضاً، ولكنه أكد عليّ أنّهُ كان صديق لجديّ روهان وأسفر.

- تستطيع التأكد من أُمك!

- لم أفهم؟

- لقد قال اسم جديك، اسأل أُمك عنها.

- كيف لم أفكر بهذا الحل من قبل... ولكنها لن تقول أنا مُتأكد.

- جرب مرة أخرى لن تخسر شيئاً.

صاح إمران أمه بأعلى صوته لعدة دقائق، حتى فتحت الباب:

- لدي سؤال ويجب عليكِ الإجابة عليه.

تجلسُ الأم بقربه على سريره لتقول مُبتسمة:

- ما هو سؤالك يا بُني!

- ماذا كان اسم جدي؟

اختفت ابتسامتها من سؤال إمران:

- حاولت من قبل ورفضت، لمَ تُكرر مرة أخرى.

يتدخل عمر في قلب الحديث:

- ولكن أن الاسم لن يؤثر على السبب الذي تخفونه عن إمران، أليس كذلك؟

- لا، ولكني لا أستطيع القول.

رد إمران مُستاءً:

- أنا بحاجة لمعرفة اسم جدي، لم أطلب شيئاً آخر.

تقرر الأم الإجابة عن هذا السؤال الذي أخفتها عنه طيلة العشرين سنة:

- حسنا يا بُني سأقول لك الأسماء فقط ولكن قبل ذلك، عدني ألا تسأل مُجدداً عن هذا الموضوع؟

- أنا أعدك..

- روهان وأسفر.

قبّل إمران والدته ليشكرها على الإجابة ومضت صوب غرفتها بعدما أودعته بقبّلة أيضاً.

- يبدو إنّه كان صديقٌ لجديك فعلاً.

- ليس بعد، رُبما عرف الأسماء مثلما عرف اسمي.

- أنت محق، لا يُهم أنت تجري دائماً وراء الأوهام؛ سأطفئ نور الكهرباء لأنام قليلاً... أحلاماً سعيدة.

لم يرد إمران على كلامه، فقد كان عمر يغضبه بشدة، لبرودة أعصابه باتجاه بعض المواضيع؛ يُطفئ الآن عمر نور الكهرباء ويستلقي على سريره ليغفو بعد دقائق من استلقائه، أمّا إمران فقد كان يُركز كل طاقته

على كل كلمة ترددت على لسان فيهار اليوم، ظلّ بقية الليل قلقاً لم يلدغه حشرة النُعاس بعد لتحمر عيناه وكأن الدماء تجمعت خلف غشاء عينه الرقيق لتنتظر مخرجاً تندفعُ منها إلى الخارج.

الساعة الثامنة صباحاً ومازال يسأل نفس الأسئلة ويربط الأحداث ببعضها كما تربطُ طفلة صغيرة شَعر دُميتها "كيف سأسد سيلان الدماء؟ وما هي علاقتي بالموت؟ وما هي الأحجية... هل كان حديثه صحيحا أم لا".

ينهض عمر مُتعثراً من سريره ليفتح عيناً واحدة بصعوبة بالغة ليرى إمران يجلسُ على سريره ويضع يديه الاثنتين خلف رأسه، قال عمر بأنفاسٍ تخنقُ حديثه:

- ألم تنم بعد؟

- لا، قُم لنذهب إلى الجامعة.

- كم الساعة الآن؟

- الثامنة والربع.

يمشي عمر ويخرج من الغرفة لينزل على تلك الأدراج مُتمسكاً بالرخام لكي لا يقع أرضاً من النعاس، أمّا إمران فقد كان اليوم على غير طبيعته، لم يعد يبالي بشيء، كان حديث فيهار ينخرُ عقله مثلما تنخرُ الحشرات غشاء الأشجار، ليظلّ طوال اليوم شارداً ومنتظراً ما سيحدث.

يدخل المطبخ ليرى أمه تُحضر الطعام مثل العادة، جلس خلفها على تلك الطاولة التي وضعت عليها الصحون وأكواب الشاي:

- مرحباً يا أمي...

- أهلاً يا بُني، هل ستذهب اليوم إلى الجامعة؟

لاحظت الأم عينيه الحمراوين لتجلس بجانبه وتقول:

- ألم تنم منذُ البارحة؟

- لا، هلا تستطيعين أن تُحضري لي القهوة بدل الطعام؟

- سأحضرها لك، ولكن القهوة في الصباح وعلى معدة فارغة ليست جيدة يا ولدي.

- ألا تريني بالكاد أستطيع المشي من النعاس.

تُحضر الأم القهوة، لتفوح رائحتها الشهية بعد دقائق في المطبخ؛ دخل عمر وعلى كتفيه منشفته الزرقاء ليقول ببهجة:

- يا الله كم هي جميلة رائحة القهوة، إن رائحتها أجمل من كافة العطور.

رد إمران بسخرية عليه:

- متى أصبحت المشاعر تتحرك في جسدك؟

- منذُ أن أحببت...

تطرح الأم الكثير من الأسئلة العفوية لتُشبّع فضولها:

- متى أحببت؟ ولم لم تخبرنا بذلك؟ وما اسم تلك الفتاة؟

- اهدئي يا أمي إنّه يمزح بالتأكيد.

رد عمر ضاحكاً بينما كان يجلس بجانب إمران:

- بالطبع أمزح، اسألي هذه الأسئلة له.

ضرب إمران قدم عمر بكاحله، لتقول الأم بينما تصبُ القهوة:

- من أسأل؟

راقب عمر قدم إمران:

- لا أحد، كنتُ أمزح..

بعدما انتهى الاثنان من طقوسهما اليومية، مضيا صوب الجامعة؛ كان إمران يُعاتب عمر بشدة كبيرة فقد غضب منه قليلاً عندما كان على وشك أن يبوح لوالدته بِحُبه، لم يكن يود أن يبوح بهذه القصة لوالدته؛ فقد كان يخفي عنها الكثير من الأشياء التي تحدث معه طيلة الأيام السابقة ويكتم على أسراره ليبوح لصديقه الوحيد عمر.

عرف عمر خطأه ليقول مُتأسفاً:

- كنتُ أمزح أنا أسف.

كان التوتر يسيطر على إمران بشدة لرؤيته لفتاة أحلامه لأول مرّة التي لطالما حلم بها، وكأن أفكاره رُبطت مع بعضها لتشكل عقدة يصعبُ فكها؛ لم يكن يستطيع الإمساك بخيط واحد من نسج خياله ليُركب جملة واحدة.

بدأ بمخاطبة نفسه، ماذا سأقول لها وكيف سأبدأ "أنا معجبٌ بكِ؟" لا سأكون وقحاً هكذا، "مرحباً أنا إمران كيف حالكِ" يا إلهي كم أنا غبي في التعبير عن مشاعري، استسلم لعمر وقال له بعد محاولاته العديدة:

- لم أعد احتمل، قُل لي كيف سأبدأ الحديث.

ضحك عمر بشدة عليه وقال:

- تتحدث مع الجميع بقوة كبيرة! وتستطيع أن تُسكتهم إذا لزم الأمر، ولا تستطيع البوح لفتاة رقيقة مثلها إنك تُحبها! لم أكن أعرفك ضعيفاً هكذا...

- ولأنها فتاة، لا أستطيع تحدث معها.

- كُن على طبيعتك، لا شيء مقلق في الموضوع وأقنعها بحبك، فلو رأتك بهذا الوضع بالتأكد سترفضُ حُبك.

بدأ التوتر يسيطر عليه مُجددا ليتخيل نفسه أمامها وهو مُرتبكٌ لا يعرفُ لسانه نطق أي كلمة:

- أنا متوتر بشدة، ولن أستطيع التحدث معها بهذا الوضع، ورأسي يؤلمني بشدة كبيرة.

يتوقف عمر في الطريق ليحدق في عينيه:

- رأسك يؤلمك لأنك لم تنم، لنعد إن أردت..

رد إمران على عجلة:

- لم أقل سنعود، كنتُ أحصي الأيام لأراها، بل وحتى الساعات.

- جيد إذاً ماذا سنفعل الآن؟

يتنفس إمران بعمق شديد، وكأنه يُنعش عقله بتلك الأنفاس:

- لنمض الآن كدنا أن نصل..

يواصلان السير حتى تتخطى أقدامهم عتبة الباب، ليمضيا نحوها مباشرةً، وبكل خطوة كانت نبضاته تتعالى وكأنه ذاهب إلى منفاه، يمُرّان بين ممرات الجامعة وبين أحاديث الطلاب ليخرجا مجددا من الباب المؤدي إلى خلف الجامعة.

بينما كان يخرج من الباب رمق خُصل شعرها التي تراقص عليها قلبه "إنها هي يا إلهي ما أجمل شعرها" يمشي ببطيء نحوها ليركز نظراته على لمعان شعرها دون أن يرّف جفناه لثانية، وكأنه يحاول أن يُشبع عينيه من النظر إليها.

بينما كان عمر يتقدم على إمران لعجلته، قال:

- ها هي فتاتك....

بدأ إمران يرتجف بشدة، لا لخوفه بل لخجله الذي سكن جسده في تلك اللحظة، يقتربُ منها عمر ويضع يده على أكتافها، وإذ بها تسعلُ بشدة:

- آيلا!

تنظرُ الآن إلى عمر والمرض ترك علامات واضحة على وجهها الناعم، سعلت مرّة أخرى بينما كانت تنهض لتُصافحه:

- هل أنتِ مريضة؟

هزت رأسها وبيدها منديلٌ أبيض تضعها على فمها حين تسعل، لتجلس مُجدداً دون أن تنتبه إلى إمران الواقف خلفها.

أشار إليه وقال:

- صديقي الذي حدثتك عنه، إمران.

حدقت في عينيه بعفوية، لتقطف ثمرة من قلبه الذي كان يزرعُ حُبها طيلة الشهور الماضية، كان خائفاً عليها من المرض، كانت مقلتاه محمرتان وعيناه ثابتتان تنظران إلى عينيها بتمعن شديد وكأنه لا يود أن يضيع ثانية واحدة دون أن ينظر إليها.

تنهض مجدداً وبينما كانت تصافحه، شعرت برجفان يده لتوتره الشديد، لتجلس مجدداً وتخبئ نصف وجهها خلف ذلك المنديل.

- حسناً، أنا سأذهب إلى مكتبة الجامعة وأعود بعد وقتٍ قصير.

مضى عمر صوب المكتبة تاركاً خلفه إمران في وضعه الحرج، كان الخجل يلبسهُ كثيابٍ تخفي جسده الهش، ليضع يديه على قدميه ويجلس كطفلٍ صغير أمام معلمه، كتبت له:

- هل أنت مريض؟

يرد دون أن يحدق في عينيها التي تربكه بشدّة:

- لا.

تشعر آيلا بغرابته لتعتقد أن شخصيتهُ خجولة وضعيفة لتكتب له دون أي اهتمام:

- كان عمر يُبالغ في وصفك..

حدق في عينيها مجدداً ليرد بتأتأة خفيفة:

- كيف...كيف وصفني عمر؟

- شخصٌ قوي، لسانه صُلب كالحديد؛ والآن أراك عكس ذلك!

يستجمع إمران قواه، ليطرد خجله الذي لم يفارقه كتؤامه طيلة الوقت:

- لستُ ضعيفاً، ولكني أخجل قليلاً.

حركت قلمها دون أن تكتب شيئاً، ليقول إمران:

- لماذا لا تكتبين؟

بينما وضعت دفترها بجانبها على المقعد، كتبت بلا مبالاة لتتحول إلى فتاة وقحة:

- أنا أسمعك تحدث..

- هناك سؤال يخطر في بالي كل دقيقة، هل أحببتِ من قبل؟

- أحببت شخصاً غبياً، ولن أكرر ذلك..

- لم أفهم!

- أقصد لن أحب مجدداً.

رسم القدر تجاعيد الخوف على وجهه:

- ألن تتقبليني أيضاً؟

- قلتُ لعمر لن أستطيع أن أحبه، ولكنه أصر أن أقابلك يبدو من ملامحك أنه لم يخبرك هذا.

- لم أتيتِ إلى هُنا إذاً؟

- لأخبرك الحقيقة فقط...

قال إمران غاضباً:

- أتيتِ إلى هُنا، لتخبريني هذا!

- مررتُ بتجربة عصيبة، أنا آسفة لن أكرر ذلك.

بعدما قرأ إمران بدأت ملامح الأسى تظهر في عينيه، ليقف صامتاً ويشرد في تلك الأيام التي مضت بسرعة كبيرة وتحطمت.

تحسست آيلا بحرقة قلبه وقررت أن تكتبُ لمواساته، لتعود إلى لطافتها وحنيتها مجدداً، ولكن إمران لم يترك لها مجالاً لتكتب:

- أنا أحببتُكِ يا آيلا، ولكني لم أتجرّأ أن أتحدث معكِ، ربما كنتُ خجولاً أو ضعيفاً حتى ولكنني كنتُ أنتظرك حتى تخرجي من الجامعة لأتأمل خُصلات شعرك ووجهك الطفولي.

الحسرة أهلكت جسده، ولكنه لم يستسلم لها وواصل الكلام:

- أتعلمين، عندما أخبرني عمر إنني سألتقي بكِ تملكتني السعادة من كل جوانب الحياة كنتُ أنتظر هذا الموعد لأيام، كنتُ أحصي الساعات بل الدقائق أو حتى الثواني... ولكنها ذهبت عبثاً.

أوقفته آيلا ودونتْ:

- توقف أرجوك..

- سأتوقف، لا أعلم ما الفائدة من كل هذا..

- لم أقصد ذلك، لا أريدك أن تتحدث بهذا الأسلوب وتحزن...
يشعل الآن سيجارته ليقول:
- أحزن! لا عليكِ سأذهب الآن لا فائدة من جلوسي هنا.
نهض إمران ليمضي قدماً لتمسك آيلا يده بقوة، ثم أفلتته:
- لا تذهب إلى أي مكان، اجلس هُنا لأخبرك لم رفضت أن أحب.
- لا تبرري ذلك، حتى ولو كنتِ في علاقة سخيفة مضتْ، جُرحتِ منها، تألمتِ، ما ذنبي أن أحمل تلك الحماقات؟
- ليس ذنبك سوى أنك شاب مثله.
- مثل من؟
نثرت اسمه على دفترها ومحته بمجرد أن قرأها إمران:
- رائد..
- رائد! ومن هو؟
وضعت يدها في محفظتها لتُخرج قطعة من القماش الأحمر:
- انظر إلى هذه القطعة، إنها من قميصي الذي مزقه رائد، أحملها معي دائما لأتذكر الظلم والألم الذي عشته تحت غطاء اسمه "الحُب".
قال غاضباً بينما كان يأخذ تلك القطعة القماشية:
- ماذا فعل هذا الوغد، أخبريني من البداية؟
- منذُ سبع سنوات، أي عندما انتهيت من الثانوية قررت دراسة الطب البشري وبالفعل دخلت كلية الطب.

- درست في كلية الطب! ولم الآن تدرسين العلوم؟

- سأشرح لك، قابلت آنذاك شاباً اسمه رائد، أحبني بجنون، وأحببته أيضاً كنا معاً...

- لدي صديق اسمه رائد أيضاً، درس الطب البشري وتخرّج والآن هو يعمل في المشفى القريب من هنا، ونحن نتقابل كل أسبوع في مطعمنا..

- لا أعتقد إنّه هو، لم يكن يُحب المطاعم ولا زيارتها، ثم إن اسم رائد رائج عندنا.

- كانت علاقتك به قبل الحداثة أم بعدها؟

- قبلها..

- حسناً، أكملي..

- بقينا معاً لسنتين، السنة الأولى كان رائعا ولكن بعد الأخرى تغير كل شيء، أصبح يتقرب مني وكان هدفه الوصول إلى جسدي فقط..

يغضب إمران لسماعه القصة ليقول مُتوتراً:

- وماذا حصل؟

نظرت إلى عينيه ودوّنت:

- لو بقيت هكذا لن أكمل، اهدأ قليلاً..

- أنا آسف.

- لاحظت تقربه الغريب مني، وسألته بصراحة تامة، ماذا تريد.. أجابني فوراً وكأنه كان مستعد لإجابة على هذا السؤال "جسدك".

- وأخذه؟

- لم أسمح بهذا... أحياناً كان يتقرب مني بشدة في الجامعة، وأحياناً في الفصل، حتى أتى ذلك اليوم حينما أنتهى الطبيب من درس التشريح، خرج الجميع أمّا نحن بقينا قليلاً لنتحدث، ثم فجأة هاجمني ومزق قميصي وكأنه وحش يعيش في البرية وأنا فريسته الضعيفة.

صُدم إمران من تصرفه:

- وماذا حدث..

- صرخت بقوة ليأتي الجميع.. وركضت نحو البيت..

- كم كان وغداً وغبياً كيف يمكن لشاب أن يفعل هذا بحبيبه!

أكملت آيلا دون أن ترد عليه:

- تركت الجامعة بعد سنة ونصف، وبقيت طوال ستة أشهر في المنزل دون أن أفعل شيئاً؛ بعد الحادثة سجلّت في كلية العلوم الطبيعية، وسأتخرج بعد عدة أشهر.

- ولم يلحق بك؟

- حاول كثيراً، كان يعلم مكان منزلي القديم، كان يجلس أمام باب منزلي ليعتذر، واعتذر بالفعل ولكنه لم ييأس من محاولته معي لنعود كما كنّا.

في آخر مرة رأيته كان شعره غير مرتب، ثيابه ممزقة ومتسخة، أتذكر منظره حتى الآن، يشبه المتشردين في كل شيء..

تتسارع ملامحه بالتغيّر:

- هل رأيته بعد الحادثة؟

- لا بالتأكيد، انتقلت لأسكن مع عمي، وغيرت الجامعة كيف سأراه! أنا أتمنى له الموت وأتمنى ألا أراه مجدداً...

- الموت! أن الموت قليل على مثل هؤلاء.

- من يكسر قلب فتاة يحتاج إلى الموت، فما بالك من محاولة ضربها، الاعتداء عليها، اغتصابها حتى!

- وهل ضربكِ ذلك الغبي؟

- نعم ثلاث مرات وسامحته؛ فعل أشياء غبية لن أذكرها الآن..

- وعمك، هل أخبرته ما حدث؟

- بالتأكيد.

- لو رأيته أقسم سأقتله، كيف يفعل كل هذا إنه مجنون حقاً.

أخذ إمران تلك القطعة من يدها وكأنه يأخذ روحاً من جسد إنسان، ليحرقها ويقول:

- الماضي انتهى على هذا المقعد، والمستقبل بدأ أيضاً هُنا؛ اختاري الآن، إمّا أن تطفئي النار وتعودي إلى الذكريات، وإمّا أن تدعيها تحترق!

نهضت آيلا من المقعد متفاجئة لما حصل، لتتأمل النار وهي تتسارع بالتسلق، وكأن النار أيضاً تبحث عن النجاة قبل أن تنطفئ، نظرت إلى

إمران بنظرة حادة، وكأنها تشتمه بعينها، لم تكن تعرف ماذا تفعل حتى رمى إمران تلك القطعة من يديه بعدما التهما النار، وقف أمامها ونظر إلى عينيها مباشرةً:

- أنا آسف ولكن هذا ما يجب أن أفعله.

نظرت إليه بنظرة بريئة وكأن روحها عادت إلى جسدها مجدداً، هزت برأسها موافقة على ما فعل، لتشعر بدوارٍ حاد فجأةً وتقع أرضاً ليمسكها إمران بقوة ويساعدها في جلوسها على المقعد.

بدأ الخوف يلتهم غذائه من قلب إمران "هل أنتِ بخير، هل تحتاجين إلى المشفى".

كانت آيلا تمسك برأسها، وتشير بيدها رافضة الذهاب إلى المشفى.

بينما كانت تُشير أغمي عليها فجأة، حاول إمران أن يطبطبَ على خديها لعلها تصحو ولكن دون جدوى.

تركها مستلقية على ذلك المقعد وركض بعجلة وكأنه هاربٌ من الجحيم، سارع بالوصول إلى الشارع وأخذ يُشير بيده إلى جميع السيارات لينقلها إلى المشفى القريب منه، حتى مرت سيارة لعجوز طيب الوجه، أخبره بلهفة "صديقتي أغميت عليها، وعلينا أن ننقلها إلى المشفى أرجوك، إن المشفى قريب من هنا" وافق على الفور وقال له:

- لا تقلق يا ولدي، زوجتي تُغمى عليها من حين إلى آخر، ستكون بخير اجلبها إلى هنا.

عاد فورا وحملها على يديه، كان وزنها يفوق قوة إمران بالحمل، شعر بأعصابه وشرايينه تتمزق تحت جلده ولكن لم يستسلم وأصر على حملها.

وصل إلى المشفى ليحملها مجدداً ويطلب النجدة بسرعة، لتخرج بعض الممرضات ومعهنَّ سريرٌ مُتنقل ليأخذوها إلى غرفة الإسعاف.

مكثَ إمران واقفاً أمام قسم الاستعلامات متأزماً وخائفاً لنصف ساعة كاملة، وكلما تمر دقيقة تسوء حالته، حتى أتى طبيبٌ شاب إليه وقال بابتسامة مطمئنة:

- مرحبا، لا داعي للقلق مجرد إغماء بسيط والآن هي بخير لا تخف.

رد بتمنّي:

- هل أنت متأكد؟ لا تخف عني شيئا، إذا أصابها مكروه أخبرني الآن!

- لا تشغل بالك إنها بخير وبصحة جيدة؛ يبدو أنك تُحبها حباً كبيرا، هل هي زوجتك؟

تنفس إمران بعمق شديد، وكأن الطبيب أزاح الثقل الذي أهلك قلبه:

- شكراً لك لقد هدأت بعض الشيء، لا إنها صديقتي لم تسأل؟

- لا عليك، نريد أحدا من أقربائها هنا، هذا قانون المشفى لا يُسجل المريض إلا بحضور أحد من أقربائه أو عائلته، وأنت صديقها كما أخبرتني، لذلك يجب عليك إخبار والدها أو والدتها.

- والداها متوفيان منذُ زمن، ولا أعتقد أن لديها إخوة...

- ولكن لا بد من وجود أحد، عمها، خالها مثلاً؟

- هي تسكنُ مع عمها ولكن لا أعرف عنوانه ولا حتى رقم هاتفه ماذا عليّ أن أفعل؟

- ألم تكن تحملُ حقيبة؟

- نعم كانت تحملُ حقيبة بنية، ولكن لا أعلم أين هي الآن!

- هذا سهلٌ جداً.

اتجه الطبيب صوب غرفة الاستعلامات وبدأ بالسؤال عن الحقيبة، حتى وجدها وأعطاها له، جلس إمران هناك وبدأ بالبحث بين أمتعتها ثم وجد بطاقتها الشخصية وورقة بيضاء مهترئة وقديمة مكتوب عليها بخط أسود فاتح اللون عنوان منزل عمها؛ يبدو أن آيلا قد كتبته منذُ زمن، نظر إمران إلى الطبيب الذي كان واقفاً ينتظره وقال:

- لقد وجدت العنوان، وهذهِ هي بطاقتها الشخصية.

بدأ الطبيب بتسجيل اسمها وتاريخ ميلادها وقال:

- حسنا خذ بطاقتها لقد انتهيت ولا تشغل بالك هي بصحة جيدة وسنعتني بها هُنا..

- شكرا لك مرّة أخرى ولكن هل لي بسؤال!

هز الطبيب رأسه، وركز على وجه بكامل حدقته:

- أين هو الطبيب رائد؟

استغرب الطبيب:

- هل تعرفه؟

- إنه صديقي، هل هو هنا؟

- اليوم لن يأتي، ولكن غداً سيكون هنا.

- إذاً سأذهب لأخبر عمها وأعود مجدداً

بينما كان الطبيب يتجه نحو الممر نادى عليه وقال:

- نسيتُ شيئاً، يجب على عمها القدوم إلى المشفى وألا يتأخر.

خرج من المشفى ناسياً روحه بين آلام المرضى وذكريات الموتى، تلك الروح التي عانت وتحطمت.

أفكاره تشتتت مرّة أخرى، وتاهت في العاصفة التي هبّت في وجهه، لتخطّ ملامح حزينة وتتركها في مرمى النظر.

اتجه إمران إلى الجامعة صوب عمر، بحث عنه في المقهى حتى وجده يتحرك بين الطاولات كتحرك سمكة في وسط أمواج هائلة تجرفُ الحصى وأسماك أخرى إلى عمقها دون أن تعرف مصيرها.

أشار إمران بيده حتى رأى عمر وجه الشاحب الذي تعود عليه، ليمشي نحوه مستغرباً:

- ما بك؟ هل حدث شيء!

- آيلا في المشفى.

- مشفى!

- لقد أغميَّ عليها وأسعفتها، ويجب علينا أن نبلغ عمها الآن.

- كيف؟ ولماذا!

- سأشرح لك في الطريق.

يمضي إمران مُسرعاً خارج الجامعة وبينما كان يشرح لعمر ما حدث على عجلة، أوقفه عمر بصراخه:

- توقف!

أنصدم إمران من صراخه:

- أنا آسف لأني صرخت، أهدئ قليلاً واشرح لي هل هي بخير الآن؟

رد بأعصاب مفرطة:

- الطبيب قال إنها بخير، ولا حاجة للقلق.

- جيد، وإلى أين ستذهب؟

- أخبرتك منزل عمها.

- هل لديك العنوان؟

- نعم، ولكن لم أعرف مكانه، خذ اقرأه ربما يمكنك معرفة الموقع.

- إنه حي المسيح، أغنى شارع في المدينة ألم تذهب إليه من قبل؟

- لا، إذاً عرفته.

- نعم، إنه في الخلف دعنا نذهب.

بينما كانا يمشيان عمَّ السكوت عليهما؛ كان عمر حزينا على آيلا، أمّا إمران فقد كان يتذكر تلك اللحظات التي جرى بينهما وكأن تلك

اللحظات بداية حياة جديدة أو نهاية الحياة، ليس مهماً، فقد كان تفكيره متعلقا بها.

يتذكر تلك التفاصيل وكأنها تحدث أمامه مباشرةً، من شعرها نزولاً إلى حذائها، كان يُركز بتمعن دون أن يُفلت تفصيلا واحدا من يده، حتى عندما أغمي عليها، لو كان بإمكانه عد الخطوات التي خطاها عندما حملها لفعل.

يعيد نفس الكرّة مع نفسه، وكأنه يشاهد فلماً سينمائياً ويعيد تشغيله عدة مرات خوفا من نسيانه، ليضع عمر نهاية لهذا الفلم:

- ماذا ستخبر عمها، إذا سألك من أنت؟

- لا أعلم ربما صديقها... أو لا أحد!

- ربما آيلا أخبرته عنك.

أخذ شهيقاً عميقاً وقال:

- حتى وإن أخبرته، ليس مهماً.

- كفاك حُزناً، مجرد إغماء بسيط ستتعافى قريباً وستراها مجدداً.

- أنا تعيس الحظ، دائما ما كنتُ تعيساً للحظ وأعلمُ ذلك، ولعلي تأكدتُ من ذلك اليوم.

يضحك عمر باستهزاء:

- تعيس الحظ!

- نعم، ولدتُ فقيراً وهذا كاف.

- والفقر هو الحظ بنسبة لك؟

- ليس الفقر وحده، لا أعلمُ شيئاً عن تاريخ العائلة ولن يخبروني إطلاقاً، أحببت فتاةً واكتشفت إنها بكماء، وفي أول لقاء لنا تُغمى عليها... أهذا كافٍ أم أُكمل لك مسيرتي مع التعاسة؟

- ولكنك قبلت بهذا الأمر، من المخجل سماع هذا الحديث منك الآن.. وخصوصاً إنها في المشفى.

يركز في عينه ويقول:

- أنت تعرفني من أكون، ولم أقصد ذلك... متى سنصل إلى منزل عمها؟

- أترى هذا الشارع الذي يتجه يساراً، إنه حي المسيح.

دخل إمران حي المسيح لأول مرّة في حياته، الذي كان معروفاً بجماله في المدينة.

شده منظر الصليب المعلق بأربعة حبال في منتصف الطريق، وصور للسيدة مريم العذراء على شرفة أغلبية المنازل والأضواء البيضاء والزراق التي تُزين الحي بالكامل.

كان مُنبهرا لجمال الحي وترتيبه، حتى المطاعم هناك كانت ألوانها غريبة ومميزة بعض الشيء ولكل منزل ثغرة خاصة تجذبك نحوه دون أن تعلم.

سُميّ الحي نسبةً إلى المسيحييّن في تلك المنطقة، فقد كانت تلك المدينة مشهورة باختلاط الأديان والأعراق، ومن أشهرها الديانة المسيحية والإسلامية واليهودية والإيزيدية؛ كانت بعض المناطق تمتلك أغلبية من ديانة واحدة مع وجود عدة أديان أخرى.

يحرك عمر زوايا فمه مجدداً:

- هل هي من الديانة المسيحية؟

- وإن كانت، ما المشكلة؟

- التقاليد وعائلتها وعائلتك!

- لا داعي للقلق من كل هذا، أقلق بشأن المنزل الآن كيف سنعرفه؟

- لقد أخبرتني اسم عمها ولكني نسيت. هل أخبرتك؟

- لا ولكن معي بطاقتها الشخصية.

أخرج إمران بطاقتها من جيبه، ليأخذها عمر فوراً ويقرأها:

- آيلا أريف... لقد تذكرت قالت لي إن اسم عمها أرمن.

- إذا أرمن أريف؟

ضحك عمر وقال:

- أتعلم أن عيد مولدها هو غداً.

- ماذا!

- مكتوب في بطاقتها أن يوم مولدها هو ٢٤- ٤- ١٨٥٣ والغد هو الرابع والعشرين من الشهر الرابع.

- لم أقرأ ذلك، ثم كيف نسيت يوم ميلادها.

- لأنك لا تستطيع التفكير الآن، دعنا نسأل أحداً هنا عن منزله؟

بينما كان الاثنان يمشيان في الطريق، صادف رجُلاً وسأله:

- مرحباً، هل تعلم أين يقطن أرمن أريف؟

- أهلاً يا بُني ومن لا يعرفه، إنه طبيب مشهور جداً ذلك هو منزله.

- شكرا لك.

بدأ المشي نحو الباب ليطرقه، وكأنه كان سيطرق قلبه بخشبةٍ حادة حتى تدخل إلى أعماقه.

بدأ الخوف بامتلاكه تلك اللحظة حتى استسلم أمام عمر:

- اطرق الباب، أنا لم أعد أركز، أنت تستطيع أن تشرح جيداً.

- ولم أنا معك الآن، هذا هو عملي.

بدأ عمر بطرق الباب لأكثر من ربع ساعة حتى تعبت يده:

- يبدو أن عمها ليس هنا.

- وأين سيكون إذاً؟

- هو طبيب ولا تستغرب من وجوده الآن في غرفة العمليات يقطع جلد عجوز بسيكن حاد!

غضب إمران من مزاحه:

- أنت لا تعرف معنى المُزاح، ولا تستطيع المزح، حتى وإن مزحت تفعلها بوقتٍ غير مناسب إطلاقاً، لذلك لا تمزح مجدداً.

قال بسخرية:

- معك حق، لا أعرف معنى المزاح.

- سننتظره هنا حتى يعود ونخبره.

- هنا؟

- نعم هنا، وعلى هذا الرصيف تحديداً سنجلس، ألديك مانع!

كبَ إمران جسده على ذلك الرصيف وكأنه يكب بقايا من ورقة بيضاء في سلة المهملات، ليبدأ التساؤلات مجدداً "متى سيأتي؟ أين هو؟ هل سيتأخر؟".

كانت روحه تتبدد، وأفكاره كانت تُسرق من نسمة الهواء التي بدأت تُلامس جبينه منذُ أن بدأ بالضجر.

يفقد عمر صبره، ليقول بينما ينفخ كل الهواء المُحتبس في صدره:

- ثلاث ساعات نحن ننتظر ماذا بعد...

- وماذا عساي أن أفعل، سننتظر نصف ساعة أخرى، وأن لم يأت سنذهب إلى المشفى.

تمر عدة دقائق أخرى حتى توقفت سيارة في منتصف الطريق، وخرج منها رجُل طويل القامة، يملك لحية بيضاء مهذبة، ركز نظراته على إمران وعمر اللذين كانا يجلسان مثل المشردين، بدأ بالاقتراب منهما وقال بصوتٍ جش:

- مرحباً، أنتم تجلسون أمام منزلي وفي مكان سيارتي!

ينهض إمران من مكانه ويقول:

- هل أنت الطبيب أرمن؟

- نعم!

يرد عمر:

- كنا ننتظر لثلاث ساعات أين كُنت!

- ولم كُنتما تنتظرانني؟

- إن آيلا..

لم يكمل إمران جملته حتى هجم عليه أرمن وأمسك بقبة قميصه وقال:

- ما بها آيلا ومن تكون أنت؟

يمسك عمر بيديه اللتين كادتا أن تُمزقا قميص إمران وقال:

- اهدأ يا عماه نحن أصدقاء آيلا وأغمي عليها اليوم وأسعفها صديقي الذي تمسكُ بقبة قميصه الآن.

أستدرك الموقف وأفلت يديه:

- متى أغمي عليها وكيف؟

- في الجامعة، الوقت غير مناسب لأشرح لك.

- حسنا، ما اسم المشفى التي أسعفتها إليه؟

- مشفى النور القريب من الجامعة.

- لقد عرفته، شكراً لكما على كل شيء، يجب أن أذهب لأطمئن عليها الآن.

يقول إمران بينما كان أرمن يفتح باب سيارته:

- ولكن يا عماه..

- هل أوصلكما إلى مكانٍ ما؟

- ليس هذا ما قصدته، أود المجيء معك، وانتظارها حتى أراها.

- لا داعي لذلك، إنها ستكون بخير هذه حالتها الطبيعية.

بعدما أصرّ إمران، أخذ أرمن معه إلى المشفى، أمّا عمر فقد مضى إلى المنزل لوحده.

"العقل البشري لا يمكن تدميره بصورة مطلقة مع الجسم, لكن شيئاً خالداً يبقى منه"

سبينوزا

اليوم الثاني والعشرون ـ ٢٤ أبريل ١٨٨٠
الساعة الثامنة صباحاً

أخذه القدر مجدداً إلى عالمه اللامتناهي حين جعل من ذلك الحب يضيع بين دروب الحياة وطياتها مرة أخرى، فلم يكن يصدق أنه عثر على قلبه الضائع، وتوأم روحه، وأخذت روحه تنشد السعادة حتى أسدلت الغيوم بظلها عليه ليتركه وحيداً في باطن تلك العاصفة السوداء التي تبلعُ الحنين والسرور، وتزرعُ الاستياء في ثنايا قلبه التائه بين ماضيه وحاضره.

كان يجلسُ على مقاعد الانتظار طيلة الليل، ناسياً جسده الذي بدأ يتمايل إلى الأسفل من شدّة التعب.

كان ينتظرُ لساعات حلول الصباح ليراها مجدداً ويستريح من ذلك الظل الذي مدّ بأجنحته حول عقله ليعصره في كل ساعة تمر، حتى استفاق عمها أخيراً من نومه على المقعد المقابل له.

فتح عينه بصعوبة بالغة وقال له متفاجئاً:

- ظننتك ذهبت إلى المنزل بعد نومي!

- لا بقيت هنا حتى الآن، لم أستطع الذهاب بدون أن أتأكد إنها بخير.

نهض أرمن واتجه صوب المغاسل، ليعود مجدداً ويقول:

- أنا أعتذر لأني تهجمت عليك البارحة، ظننتك شخصاً آخر.

- تقصد رائد؟

- ومن أين تعرفه؟

- لقد حدثني آيلا عنه

حرك رأسه بلطف وقال:

- إذا أنت إمران والآخر صديقك عمر أليس كذلك؟

رد إمران باستغراب:

- نعم ومن أين تعرفني؟

- لقد حدثتني آيلا عنكما، وعرفتك من عينيك اللتين تلمعان، يبدو أنك تحبها حباً كبيرا.

ارتبك إمران قليلاً، وأكمل أرمن حديثه:

- أخبرتني الأمس إنها أغمي عليها ولم أسألك أي شيء، ومن شدة تعبي نمت بعد ربع ساعة من جلوسي هنا، كيف حصل ذلك معها وكيف أغمي عليها؟

- كنا نتحدث عن ماضيها، وأرتني قطعة قماشية من قميصها..

- لم أكن أعرف أنها تحملها معها أينما تذهب! أكمل...

- أخذت تلك القطعة وأحرقتها بعد معرفتي قصتها، وقلت لها إما أن تمضي قدماً نحو مستقبلك وإما أن تعودي بها إلى الماضي، فهزت رأسها ثم أغمي عليها.

- فعلت شيئاً لم أتجرأ على فعله من قبل، إن آيلا فتاة رقيقة وحساسة جداً ومرت بالكثير من الصعوبات في حياتها.

- أنا أعلم هذا الشعور مررت بالقليل منه، أتمنى أن تتعافى في أقرب وقت.

- ستتعافى لا تقلق، كلما تمر بحالة حزن شديدة أو سعادة شديدة تُغمى عليها.

- أتمنى ذلك.

- أخبرني عنك، أود التعرف إليك قليلاً.

- اسمي إمران والداي هما ليبراف وغيثار.

- ليبراف وغيثار! اسمان غريبان..

- كنا نسكن منذُ مدّة إلى..

تحير أرمن:

- مدّة!

- نعم، إلى منزل صديقي وحولنا المنزل إلى مطعمٍ صغير.

- وأين كنت من قبل؟

- كان منزلنا ملتصق بالمقهى الفرنسي الشهير "La Nourriture" الذي يقع في الضاحية أتعرفه؟

- ومن لا يعرفه، ذاع صيته في البلاد منذُ سنوات، وبالمناسبة عندما كنت شاباً كنت أسكن قريب منه.

- قريب منه! عفواً ولكن لا يوجد مسيحيون في تلك المنطقة؟

- الجميل في هذه المدينة، إنها كالبحيرة تحمل أشكالاً عديدة ولكنها بالنهاية إنها بحيرة واحدة.

يكمل أرمن حديثه بعدما أخرج دفترا صغيرا من جيبه ليرسم له دائرة:

- انظر إلى هذه الدائرة لو وضعت ألف نقطة بداخلها لن تخرج منها، بل سيكون اسمها النقطة التي في الدائرة، يا بُني الديانات ما هي إلا هوية قديمة ناقصة بلا شك.

بينما كان إمران يصغي إليه، يكمل أرمن حديثه:

- لا أحد يفرق بين الديانات في هذه المدينة، عندما كنتُ أسكن هناك أتذكر جيداً جارنا القديم، كان من الديانة الإسلامية، وفي أعيادنا كان يتقدم بتهنئة ونحن أيضاً، إنه جميل أن تحب أخاك كما هو.

تحدث إمران أخيراً:

- ذكريات جميلة...

- ليست بجميلة فهناك ما دفعنا لترك الحي.

- ما هو السبب وراء ترككم الحي؟

- منذُ حوالي ثلاثين عاماً كان عمري حينها حوالي عشرين سنة، أتذكر أني كنتُ مُقبلاً على كلية الطب البشري حينها....

يتساءل بفضول عجيب:

- وماذا حدث؟

- وقف شخصٌ مختل على حافة بناء عال، ورمى بابنته أرضاً لتلقى حتفها فوراً ثم قفز خلفها ومات، ومن حينها امتلكت عائلتي الخوف علينا وانتقلنا بعد أسبوعين من الحادثة..

ينظر إمران إليه ملء عينيه:

- يا إلهي كيف هذا؟
- للأسف هذا ما حصل، البعض نعت روهان بالمجنون والآخر بالمختل والبعض كانوا يقولون إنه كان يهلوس في ذلك الوقت.
ينهض من مكانه مُندهشاً وكأن أحداً مزق شرايين وجهه إلى أقسام، لتتغير ملامحه بسرعة كبيرة، كان الغضب يفوح منه كرائحة المطر وهي تبلل الرخام، مضى نحو الخارج.
لاحظ أرمن سرعته الكبيرة في الانفعال، حاول جاهداً اللحاق به لتهدئته إلا أنه لم يكن يستوعب ما قاله أرمن، خرج من الباب حتى أوقفته يد أرمن وأخبره:
- اهدأ قليلاً ماذا حصل أخبرني؟
بدأ بالجلوس على الرصيف كانت الصدمة مسيطرة عليه تماماً، كانت قدمه ترتجف بقوة كبيرة، حاول أرمن أن يفهم ما حصل، ولكن دون جدوى..
بعد عدة دقائق أحضر له الماء، فشرب وقال:
- إنها الحقيقة التي أخفوها عني..
يستغرب أرمن مجدداً ليجلس بجانبه على الرصيف ويقول:
- اهدأ يا إمران، وأخبرني ما حصل بهدوء..
- إنها الحقيقة التي أخفوها عني.
- أي حقيقة أخبرني!

- روهان هو جدي، لا أصدق إنه انتحر وقتل خالتي!
يكمل إمران بحرقة قلب كبيرة:
- كيف سأرى نفسي من اليوم حفيد قاتل؟ كيف سأقول إني من هذه العائلة، كيف سأنظر إلى أعين أمي عندما أخبرها إن أبيها قاتل ومجنون؟ يا إلهي...
يتركه أرمن ليسرد كل ما في جعبته:
- أكنت ستصدقني لو أخبرتك لا أعرف الكثير عن عائلتي! لو أخبرتك هذه الحقيقة أكنت ستصدق؟ كيف سأعيش مع هذه الذكريات إلى الأبد؟
يتدخل أرمن أخيراً:
- جميعنا لدينا ذكريات بشعة يا بُني، وليس ذنبك أنك ولدت في عائلة لديها بعض الذكريات المؤلمة.. أليس أنت من أحرق تلك القطعة لتنسى آيلا ماضيها؟ أنت أيضاً احرق ماضيك على هذا الرصيف، وفكر في مستقبلك.. فكر في آيلا!
هدأ إمران قليلاً ونظر إلى عينه بينما كانت عيناه تتحدثان:
- عدني أن تنسى كل الذكريات المتعلقة بجدك عندما تدخل إلى غرفة آيلا، وعدني أن تخبرها كّم تحبها.. وسأقول لها كيف كنت تنتظرها طوال الليل لتراها... هيا قم معي لنراها سوياً.

بينما كان ينهض ليأخذ المشفى طريقاً له، كان حديث أرمن يؤلمه بشدة وكأنه صبّ حديدا منصهرا على درجات حرارة عالية فوق جلده الرقيق، لم يكن لينسى ما قاله، ولكن تناسى في ذلك الوقت.

دخل إلى المشفى وأتجه صوب مكتبة تنظيم أوقات الزيارات، فلم يكن هناك أحد، رن ذلك الجرس الحديدي المزعج حتى أتت ممرضة.

- صباح الخير.

يرد أرمن وعيناه تبحثان عن الموظفة السابقة:

- أين هي الموظفة الأخرى؟

- لقد انتهى دوامها منذُ ساعات، كيف يمكنني أن أساعدكم؟

- منذُ البارحة كنا ننتظر الصباح لنزور مريضاً هنا، هل يمكننا الدخول الآن؟

- لحظة من فضلك، أريد بعض المعلومات ما اسمها؟

رد إمران بليّة:

- آيلا..

- الاسم واللقب من فضلك!

- آيلا أريف.

بحثت الموظفة بين السجلات حتى رأت اسم غرفتها وقالت:

- ها هو الاسم، آيلا أريف يا لها من مسكينة.. ستخرج من المشفى مثل أول يوم لها في هذه الحياة.

يتفاجأ إمران ويقول:

- لم أفهم؟

يرد أرمن بينما كان يمسك رأسه من الصداع:

- كيف نسيت هذا.. إن اليوم هو عيد ميلادها.

يسأل الموظفة:

- متى يمكننا رؤيتها؟

- بعد نصف ساعة رقم غرفتها ثلاثمئة وأربع وعشرون.

يتشكرها أرمن ليقول لإمران:

- يجب أن نتسوق لنحضر لها هدية مناسبة وبعض من الزهور.

تحمس للأمر:

- لنستعجل قليلاً.

بينما كانا يمشيان باتجاه المخرج مُجدداً يُصادف إمران صديقه رائد الذي تعرف إليه في المطعم، فقد كان يبحثُ عن مكانٍ مناسب له حتى صادف المطعم وبدأ بالقدوم إليه في كل يوم تقريباً في ساعات الظهيرة.

كان رائد شاباً جميلاً وطويل القامة يملك بشرة نظيفة وبيضاء، وأكثر ما كان يركز عليه في حياته هو ثيابه، فلم يكن يلبسُ حذاءً أو قميصاً دون أن تكون الألوان متناسقة بشكلٍ جيد.

يتذكر إمران دوما سخريته وضحكته العالية، ربما كان من أكثر الأشخاص سخرية في حياته؛ رغم كل العناء الذي في قلبه كان يسخرُ

من أي شيء أمامه حتى وإن كان هماً أو ألماً يحوله إلى نكتة بشكلٍ لا يصدق.

كان متزوجاً من امرأة ريفية لا تفقهُ حرفاً، ولا تعرفُ معنى للحياة سوى المنزل والأطفال، لم يتزوجها عن حب بل تزوجها من خلال قريب له في الريف.

بدأت صداقتهما في اليوم الثالث له في المطعم عندما كان المطعم خالياً من أي شخص، كان إمران الوحيد هناك، فقرر الجلوس معه، ليبدأ رائد بسرد قصة حياته ومشقته حتى صار طبيباً جديداً في المشفى.

صافحه إمران مُداعباً:

- الثياب البيضاء تليق بك يا صديقي..

رد بسخرية:

- ماذا تفعل هنا، أتنتظر قدوم ميت ليخبرك كم هو جميل عالمه؟

يضحك إمران دون إرادته وينسي كل ذكرياته المؤلمة:

- الأمس سألت عنك وقالوا إنك ستعود اليوم إلى عملك.

- هذا صحيح كنتُ مريضاً.

- مريض!

- داء الموتى.. أعراضه أن ترى الأموات كل يوم.. علاجه أن تقرصك نحلة غير موجودة أصلاً.

ضحك مجدداً، لينتبه أرمن لغرابته:

- كيف تسخر من الموت أو المرضى بهذا الشكل؟

- نظر إلى إمران:

- من هذا الشخص؟

- أنا أعتذر لم أعرفك عن الطبيب أرمن..

تفاجأ رائد به وصافحه:

- أنا أعتذر، لم أكن أعرفك إنك الطبيب المشهور ذات الصيت الرائع.

- لا عليك، يجب أن نذهب..

سأل إمران مجدداً:

- لم أنت هنا؟

- صديقتي هنا... إنها مريضة.

أخرج دفتراً صغيراً من حقيبته:

- أخبرني اسمها وسأعتني بها لا تقلق.

- آيلا أريف في الغرفة ثلاثمئة وأربع وعشرين.

تتغير سمات وجه رائد فجأة من وجهٍ ضاحك إلى وجه عابس وجدّي.

- حسناً، سأرى ماذا يمكنني أن أفعل لأجلها.

يمضي إمران سعيداً مع أرمن، تاركاً وراءه قلبه مستلقياً على سرير حديدي، لم يكن يعرف أن رائد هو ذلك الجحيم الذي تنتظره آيلا.

بعدما دخل الاثنان إلى السيارة، اقترح أرمن أن يذهب إلى المقبرة القريبة من المشفى، فيتعجب إمران منه:

- مقبرة؟

- لا تستغرب، فأمام تلك المقبرة محل ضخم للزهور، يملك جميع الأشكال والأصناف.

أستهزئ إمران:

- محل للزهور وأمام المقبرة!

- إنهم يستثمرون بأي شيء، أوجاع الناس، فرح الناس، كل شيء يخطر على بالك... هذا المحل أذا كان في منتصف المدينة لم يكن سيحصد زبائن مثل المقبرة..

- هذا صحيح، حتى المقبرة والقبور تُباع.. إن بعض التجار كالشياطين، يبيعون السعادة ويستثمرون الآلام ليمتصوا بعدها دماء الناس وكأنها إكسير الخلود.

بينما كانا يتبادلان الحديث، تقترب السيارة من المقبرة، كان إمران يركز نظراته إلى الجدار الضخم الذي يغلقُ أوجاع الموتى عليهم، التفت السيارة من قرب باب المقبرة حتى شاهد إمران من خلال نافذته فيهار يجلس إمام الباب على كرسي خشبي قديم بحلته المعتادة، تقف السيارة بعد دقائق وقبل أن ينزل تحدث إمران:

- اشترِ الزهور، سألحق بك بعد دقائق، لقد رأيت صديقا لي أمام باب المقبرة..

- حسنا، سأنتظرك بالداخل.

نزل إمران وأغلق الباب واتجه صوب فيهار مباشرةً:

- مرحباً..

نظر إلى وجهه:

- عرفت إننا سنلتقي ببعضنا..

سأله إمران:

- ماذا حصل لجدي!

- أيّ جد؟

- ليبراف.

- انتحر مع خالتك عندما كان عمرها أحد عشر عاماً...

يحبس إمران أنفاسه:

- ولم لم تخبرني من قبل؟

- لأنك لا تصغي إليّ عندما أتحدث..

- قلت إنك ستراني غداً ولم أرك الأمس أين كنت؟ وماذا كُنت ستخبرني؟

- تساؤلات كثيرة مجدداً.. لم أرك لأني لم أعرف أين كُنت، وماذا كنت سأخبرك بقصة طويلة.. حين يحين الوقت ستعرف كل شيء.

- متى سيحين الوقت؟

- حتى يستيقظ الموت من نومه مجدداً، في يوم مولدي.

يغضب إمران كعادته المستمرة:

- كفاك حديثاً بهذا الشكل، أخبرني بوضوح ما تقصده.

- ليس هناك شيء لأخبرك به الآن، ولكن تأكد أن الموت يختار بحكمة.. أراك لاحقاً

يدخل فيهار إلى المقبرة ليلحقه إمران ويقول:

- يجب أن أراك قريباً، وتخبرني كل شيء فقد نُفذ صبري.. أنا مستعجل الآن وأعرف أن لديك شيئا مهما يجب عليك إخباري به..

- هناك شيء بالطبع.. ولكن الوقت لم يحن بعد.

- ما هو مقياس الوقت بنسبة لك؟

- يا بُني ثق في كلامي، إن أخبرتك الآن ستلعب مع القدر والموت..

يتفاجأ مجدداً:

- القدر والموت!

جلس فيهار قرب قبر لطفل صغير:

- انظر إلى هذا القبر، إنه لطفلٍ صغير، لو سألك القدر أن تعطي بقية عمرك له، فتموت أنت ويحيا هو، هل ستقبل؟

ينظر بتمعن إلى القبر وقال:

- لا أدري ولكن ربما!

- أرجوك لا تقل لي كلاماً شاعرياً، الإنسان طماع بفطرته.. كن صريحاً وقل إنك لن تعطي روحك مقابل حياة هذا الطفل!

- لا أتفق معك.. المئات من الأشخاص ينتحرون يومياً، كيف استغنوا عن روحهم بهذه السهولة؟

- لم يستغنوا بل أُجبروا أن يتركوا أرواحهم تضيع في هذه السماء..

- ربما.. يجب أن أراك وتخبرني المزيد عن عائلتي أريد أن أعرف التفاصيل منك.

- حسنا بعد عدة أيام سآتي إليك وسأخبرك كل شيء أعرفه.

- وإن لم تأت سأعود إلى هنا..

هز رأسه:

- أنا لا أعملُ هنا إطلاقاً، وكلما رأيتني هنا، سترى جنازة لشخص ميت.. واليوم دور شخص آخر.. أنا فقط أودعهم بزهرة صغيرة، ولدي هنا عدة قبور عزيزةٌ عليّ.

-حسناً، عدني أنك ستأتي!

-أنا أعدك..

يعود مجدداً إلى محل الزهور، بالرغم من أنه لم يفهم من حديث فيهار شيئا، إلا إنه كان يحبه لشيء ما لا يعرفه، ربما حكمته، أو غموضه المُستمر..

- عُدت أخيراً.. انظر إلى هذه الباقة أهي جميلة؟

- لديك ذوق جيد في الزهور.

يبتسم عمها ويدفع المال ثمن الزهور ويعود مجدداً إلى السيارة، ليسأله إمران:

- هل تعرف شيئا آخر عن عائلتي؟

- ألم أقل لك أن تنسى؟ لم تسأل مجدداً؟

يسحب أنفاسه ليقول بأسى:

- ولدت دون تاريخ، لا أعرف جدي ولا جدتي وكلما كنتُ أسأل عنهما، كان الجواب "لا تسأل" ثم أصبحتُ مراهقاً.. كنت أرى زملائي في الصف يتحدثون عن جدهم كم هو طيب.. كنت أعشق جدي في حين لم أكن أعرف عنه بمقدار قطرة ماء في البحر..

- يا بُني...

أنفعل إمران وواصل بالكلام:

- أصبحت كبيراً ورأيت عمر كيف يهتم لجدته، تمنيت أن أملك جدة مثله، ربما شعوري كان كشعور طفل صغير يود احتضان لعبته، ولكني يا عماه تمنيت حقاً ان أملك عائلة مثله.. حسدته على جدته بالرغم من موت والديه.

- أعلم شعورك جيداً.. فكر في عائلتك الآن.. صدقني لو كان هناك أي معلومة عن جداك لأخبرتك.

أخذه أرمن بالأحضان وأخبره:

- لقد أحببتك كثيراً بالرغم من أنني لم أرك سوى الأمس.. اعتبرني صديقا لك.. وزرني دائماً وأنا سعيد لأنك أحببت آيلا فهي تبحثُ عن شخص بمثابة عاطفتك وعقلك وحبك لها..

تنزل دمعة سارقة من عينه، مازحه أرمن وقال:

- يجب أن نذهب لنشتري لها هدية.. وهذه المرة أنت ستدفع ثمنها.

ضحك الاثنان واتجها صوب المدينة، في ذلك الوقت دخل رائد غرفة آيلا، ليراها مُستلقية دون حراك فتأثير التخدير لم ينته بعد، اقترب منها وبدأ بمغازلتها "يا الله كم أنتِ جميلة، لم أرَ مثل هذا الوجه الناعم من قبل أعوام" يحرك يده على وجهها ليتحسس نعومة وجهها، ليمرر فوق جبينها إلى شعرها الهادئ كهدوء الشمس وهي تسطع في الفجر.

"كنتُ أبحثُ عنكِ طيلة هذه المدة، وها أنتِ بين يدي مستلقية لا تستطيعين التحرك" يجلس بجانبها على الكرسي ويمسك بيدها ويبدأ بعصر يدها بقوة "أين كُنتِ، أين اختفيتِ كل هذهِ المدة، لقد شردتُ في الشوارع مثل المجانين، أهملت نفسي، وحياتي ودراستي فقط لأني أحببت فتاةً حمقاء مثلكِ".

يصرخ في أذنيها قائلاً "جعلتني وحشاً، ومجنوناً، جعلتني أضحوكة يسخر منها الجميع لن أتركك هذهِ المرة مهما كلف الأمر "بدأ يمشي في الغرفة، وأغلق الباب من الداخل ليهز سريرها بقوة كبيرة "متى ستفيقين من هذهِ الغيبوبة، سأجعلكِ اليوم تنامين إلى الأبد... تركتني كل هذا

الوقت لتحبي شابا غبيا مثله.. إنه ليس بصديقك إنه حبيبك أليس كذلك! أهذا هو عمك السخيف إذاً؟ قسماً ستندمين..".

تتغير طباعه ليتحول من رجل غاضب يعشقُ الانتقام إلى شخص هادئ وحنون فتنزل من عينيه دموع تروي عطش الحقد الذي بداخله "اليوم هو ميلادك كما هو ميلادي أيضاً، أتذكرين كيف كنا نحتفل سوياً".

مسح دموعه وأكمل" ذنبي أني أحببتك، كل هذا الوقت أحببتك ولا زلت... صار لدي طفلان لم أحبهما يوماً بمقدار الحب الذي أعطيتكِ آنذاك، كم أنتِ غبية...".

عاد إلى طبيعته المتوحشة مجدداً وجلس على الكرسي وبدأ بانتظارها حتى تفيق.. بدأ بسرد يومياته من حين اختفائها إلى اليوم كان يشعر بالحديث وكأن الحديث يتلاعب به بالحبال مثل "المار يونيت" يضحك مع نفسه ويبكي ويحزن ثم يفرح مجدداً حتى توقف.

كان صامتاً، منتظراً رؤية آيلا تستعيد وعيها مجدداً حتى استفاقت آيلا من تخديرها لتفتح عينيها بهدوء تام، لترى رائد بجانبها يجلسُ على الكرسي.

ينظر إليها وكأنها فريسته سيلتهما في أي وقت، جلست على السرير وبدأ الذعر يستحوذ عليها، كانت خائفة، لم تكن تصدق ما تراه، كانت تعتقد أنه من محض خيالها، حتى تحدث رائد وقال:

- وأخيرا الأميرة النائمة تفيق من السحر بعدما أنقذها الأمير.. ولكن النهاية إنهم تزوجوا وعاشوا حياةً سعيدة، أما نحن فلا.

تمسك قدميها من الخوف وتبتعد عنه حتى وصلت إلى طرف السرير، كادت أن تقع ولكنها ثبتت نفسها، ليكمل رائد بحالته المزرية:

- انتظرتكِ لسنوات وها أنتِ ذا هنا أمامي أتيتِ بنفسك، ربما القدر اختار لكِ مكاناً هنا لأراكِ مجدداً... بدأت أؤمن بوجود القدر.

حاولت الكلام ولكنها لم تستطع، أشارت بيدها إلى دفترها وقلمها، ليصفع يدها بقوة شديدة، ومن شدة قوتها احمرت يدها وبدأت بالذعر أكثر حتى انهمرت دموعها.

كانت تحاول أن تكتب على دفترها إلا إنه لم يكن يستوعب أنها صارت بكماء، تقدمت نحو الطاولة بهدوء شديد وخوف مسيطر عليها، كانت ترجف بشدة، أمّا رائد فقد كان ينتظر أي حركة ليضربها مجدداً.

كتبت آيلا بعدها ويداها ترتجفان "أصبحتُ بكماء، ماذا تريد" وأعطت الدفتر لرائد وسحبت يدها بسرعة.

قرأ رائد تلك الملاحظة ونظر في عينيها بغضب شديد، وكأن عينيه أيضا تحاولان الهجوم عليها، نهض من مكانه وأمسك شعرها بقبضته وضرب رأسها بمؤخرة السرير حتى نزفت بعض الدماء من رأسها.

كان تتألم وتبكي وتحاول أن تبتعد إلا إنه لم يكتف بذلك فقد وضعها على السرير وبدأ بصفعها بقوة كبيرة لعشرات المرات وتركها بعدما حطم وجهها بالكامل.

حاولت الهروب من الباب إلا إنه كان مقفلاً، كانت تحاول فعل أي شيء لتهرب منه.

كانت دموعها ودماؤها تملأ الغرفة بالكامل، جلست في زاوية الغرفة وكانت تبكي وتتألم دون أن تنبس بحرفٍ واحد.

- بكماء أليس كذلك.. لا تتحركِ وتحدثي وإلا سأكسر عظامكِ هذه المرة.

حركت يدها، حاولت أن تقول له إنها بالفعل بكماء، ولكنه لم يصدق ذلك، نهض مجدداً وأمسك يدها اليسرى وثبتها على الأرض ليضرب بكاحله منتصف الأصابع بقوة شديدة وكأنه يدهس أفعى تحاول لدغه، لتتكسر أصابعها وتتحطم، حاولت الصراخ بكامل قواها ولكن دون صوت.. تعالت ضحكات رائد الذي كان يستمتع بما يقوم به:

- ما أجمل أن تعذب شخصاً أبكم، خدي دفترك واصرخي كما تشائين لا تقلقي، لن أكسر اليد التي تكتبين بها.

نظرت إليه بضعف شديد، لم تكن تتحمل.

- عذبتني لسنوات، وأنا عذبتكِ ليوم واحد فقط.. احملي القلم واكتبي الآن.

تحمل القلم ويداها ترتجف بقوة كبيرة ليس من الخوف إنما من الألم "أرجوك دعني.. أرجوك".

يضحك بشدة بعدما قرأ:

- أدعك! سيكون هذا حلمك الوحيد في الجحيم... أجيبِ برأسك على الأسئلة وإن لم تكونِي صادقة ستتألمين مجدداً.

هزت برأسها موافقة، وعيناها تناشدان الله لكي ينقذها من بين يد هذا الوحش:

- هل أحببت إمران؟

هزت برأسها رافضة، ضرب قدمه بقوة شديدة على صدرها ليدفعها إلى الحائط، أمسكت آيلا بيدها اليمنى صدرها بينما كانت تتنفس بصعوبة كبيرة. سألها مجدداً:

- هل أحببته؟

أمسكت بيدها السرير لتستند عليه، نهضت من مكانها وصفعته بقوة كبيرة ولكنه لم يتأثر بأي شيء، فقال:

- عرفت الجواب..

هجم عليها مجدداً، ليضربها بقوة أكبر حتى حملها ووضعها على السرير وأمسك بقبضته رقبتها الرقيقة وبدأ بخنقها بقوة كبيرة، كانت تحاول أن تبعده بيدها، أو قدميها ولكن دون جدوى، كانت تناشد وتصرخ بقوة كبيرة دون أي صوت:

- ما أجملك الآن تصرخين وأنتِ بكماء...
تحول غضبه إلى هلوسات تخنق آيلا بقوة كبيرة، فرغ كل حقده بها، حتى ماتت..
بعد لحظات من موتها أدرك أنه خنقها، ليبكي فورا ويمسك بجسدها ويحركه بقوة أملاً أن تعود إلى الحياة ولكن دون جدوى، رتب ثيابه وخرج بسرعة من المشفى، كان يركض بسرعة كبيرة، لاحظت ممرضة خروجه السريع من الغرفة، لتناديه بكامل صوتها إلا إنه رحل..
تدخل بسرعة إلى غرفة آيلا لترى جسدها مرمياً على السرير والفوضى والدماء تعمان المكان، كبست زر الطوارئ بجانبها وبدأت بالصراخ، حتى تجمع الجميع في غرفتها.
وصل إمران في ذلك الوقت إلى المشفى أخيراً وقلبه يرقص بداخله من الفرحة لرؤيته حبيبته الوحيدة، أو حلمه الوحيد الذي كان يتحقق شيئاً فشيئاً.
دخل مع أرمن من الباب الرئيس واتجها فوراً نحو غرفة آيلا ليجدا بعد دقائق جميع الأطباء هناك خائفين متوترين لا يعلمون ما حصل هناك.
بدأت ملامح أرمن بالتغير شعر بالخوف الشديد على آيلا، أمّا إمران فقد كان مستغربا بعض الشيء، ركض أرمن نحو الغرفة ليصرخ بكامل طاقته "آيلا..." بدأ إمران أيضاً بالركض نحوه ليرى بعد دقائق هذه

اللوحة المؤلمة، التي حطمت كل بقايا عظامه وحولتها إلى ركام. جلس على ركبتيه وبدأ يردد نفس السؤال ببرودة أعصاب "كيف حصل؟" كانت تلك الممرضة تبكي بقهر، لتنطق أخيرا، كان رائد هنا وركض من الغرفة مسرعاً، نظر إليها أرمن وعيناه محمرتان من الغضب، ليزرع الحقد بداخله فينبت بسرعة ويكبر مع ألمه السريع، أمسك قبة قميص الممرضة وشدها بقوة إلى الحائط:

- من هو رائد أخبريني الآن!

ردت خائفة:

- طبيب يعمل هنا!

عاد أرمن إلى غرفتها وأخذها بالأحضان أمّا إمران كان جالساً على ركبتيه يشاهد جثتها على السرير ببرودة أعصاب، الصدمة كانت قوية عليه لدرجة أنه لم يكن يستوعب ما حصل، ثم نطق أخيراً:

- أعطني عنوان منزله..

مسحت دموعها وقالت:

- تعال معي.

مضت صوب المكتبة وبحثت بين الأوراق حتى رأت عنوانه مكتوبا هناك، كان عنوانه قريبا من منزله الجديد، كتب بسرعة على ورقة أخرى عنوانه وبدأ بالركض نحو الخارج بسرعة كبيرة، تاركاً للعالم

فرحه، حاملاً كل أحقاده على راحة يده، لم يكن يفكر إلا في شيء واحد، قتل رائد.

يصادف لحظة خروجه عمر، كان مبتسماً ولا شيء يعيق ابتسامته إلا نظرة إمران تلك، لأول مرة كان عمر يرى إمران بهذه الحالة، التي كانت مزرية بشكل فظيع قال له بينما كان إمران يلقط أنفاسه:

- ما بك أخبرني؟

دفعه إمران بيداه التي ترتجف بقوة كبيرة وبقسوة طحن الحجر ليصير رملاً، فتحولت دموعه إلى دماء من شدّة غضبه، خاف عمر منه بشدة وكأنه وحشٌ بري يهاجمه، سأله مجدداً:

- ما بك....

- قُتلت آيلا، ورائد قتلها..

أنصدم عمر من حديثه:

- يا إلهي كيف؟ متى ومن رائد؟

- ذلك الوغد الذي كان يزورنا في المطعم هو نفسه من كان يحبها...ليتني كنت أعرف من قبل.

تنفس مرة أخرى بقوة:

- العنوان معي سأقتل هذا الوحش اليوم... سأمزق شرايينه، مثلما مزق حياتي إلى نصفين.

حاول عمر تهدئته في منتصف الشارع بينما كان إمران يمشي بسرعة نحو منزله:

- توقف، هل حقاً ستقتله؟

أمسك إمران بثياب عمر ودفعه إلى الأرض:

- لا تفتح فمك مجدداً، لن أقتله بل سأقطعه، سأشرب من دمائه حتى أرتوي..

خاف عمر منه وبدأ باللحاق به مجدداً دون أن يتكلم أي شيء، كان همه الوحيد أن يبقى صديقه سالماً..

وصل إمران إلى ذلك الحي الذي يسكنُ به رائد، ومن شدة بكائه لم يكن يميز رقم البناء فأعطى الورقة لعمر:

- أخبرني رقم البناء..

- الرابع والعشرون.

تقدم الاثنان نحو المبنى، وقرأ عمر اسم رائد على البناء، وعرف أين يسكن، حاول مجدداً تهدئة إمران ولكن دون جدوى.

ضرب بكاحله الباب وكسره، ودخل بهمجية إلى الداخل، ليفجع مرة أخرى، فقد كان رائد معلقاً والحبال تلتفُ حول رقبته، أدرك بعد لحظات أنه انتحر..

" لا يمكن أن يستمر إخفاء ثلاثة أشياء، الشمس والقمر والحقيقة "

بوذا

يوم الخامس والعشرون ـ ٢٧ أبريل ١٨٨٠
الساعة التاسعة مساءً

رفع الموت عقيرته في ذلك اليوم، فأبعدته عن عشقه الأبدي الذي كان يبحث عنه كل مرّة في ثنايا عمره التائه ليدفعه حنينه مجدداً إلى خوض غمار الحياة باحثا عن قاربه الذي أخذ يتمايل مع تلك الرياح التي بدأت تهب من جديد مؤذنة بقصص لا تنتهي عن قلب طرق باب النسيان، وسبر أغوار الزمن، ليعيد له ترتيبه الأول بعدما اِختلطت الأزمنة والأيام ببعضها، فتاهت خطواته في رحلة العمر المجنونة تلك، وبقي تائها في مهبّ النسيان، يستجدي الزمن ليعيد ائتلافه مع أيامه، وتنتقل الذكريات التي كانت مرة أخرى، فتعود متسلسلة، ويعود هو ليزيل آثار اِختلاط أوراق الساعات مع بعضها، فيبقى اليوم كما هو، ساكنا في مكانه، يرفض الرحيل، أو ليرحل، ليس مشكلة كبيرة لديه، ولكنه فهم كل شيء، وعليه الآن إيقاف تلك الساعات التي مرت في حياة أجداده الذين رحلوا، وفتحوا الباب على مصراعيه للحظات بالكاد فهمها، بعد طول انتظار، وصبر شديدين.

تلك الحادثة مزقت إمران إلى قطع صغيرة تطفو على سطح تلك المياه الضحلة التي خرجت لتوها من قعرها، ليتوارى عن الأنظار ويختفي لأيام.

خلق الحزن من العدم، وزرع الخوف في قلوب أحبائه، منهم عمر الذي كان يبحث عنه طوال الأيام، وأمه التي أمسكت قلبها وعصرته بقوة "أين ابني، بماذا يفكر، كيف ينام، ماذا يفعل" أسئلة كثيرة ترميها في

واقع الجنون، أمّا الأب فقد كان يبحث في المستشفيات ومراكز الشرطة ولكن دون جدوى.

عاد عمر مجدداً بعد بحثه طيلة النهار إلى المنزل، لتسأله الأم بلهفة نفس السؤال طيلة الأيام الماضية "هل وجدته؟" فيهز رأسه رافضاً.

جلس على طاولة قرب الباب وحمل بيده كأس ماء ليشرب وفي تلك اللحظة طُرق الباب، وكأن تلك الطرقات تزيل الغُمّة من قلوبهم فالجميع ظنوا أنه هو إمران، ركضت الأم نحو الباب بِابتسامة واضحة على وجهها وكأن تلك الابتسامة خيطت بإبرة وخيط رفيع، فتح عمر الباب ليرى فيهار منتظراً في الخارج عرفه فور رؤيته، ألقى تحية على عمر.

- مرحباً.

رد عمر التحية، أمّا الأم فقد فقدت أعصابها مرة أخرى، لتمضي صوب غرفتها وتبكي مجدداً.

- أهلاً، المقهى مغلق الآن..

- لم هو مغلق؟

- اختفى إمران منذ أيام ولا نعلم مكانه لحد هذهِ اللحظة..

يبتسم فيهار، ليثير غضب عمر:

- لمَ تبتسم؟

- أنا أعلم مكانه، حضر نفسك لنذهب إليه.

يرد عمر باستهزاء:

- بحثت عنه في كل مكان وأنا صديقه المقرب ولم أجده، وأنت تزعم أنك العراف الذي سيجده؟

- لم تجده لأنك لا تعلم أين تبحث.

- هل أنت متأكد بانك تعلم مكانه؟

- هيا لنذهب وسأشرح لك على الطريق.

أغلق عمر الباب ومضى مع فيهار ليقول بينما كان يمشي معه:

- أخبرني الآن أين هو؟

- إنه في مكان يروي عطشه.

- أي مكان تقصد؟ فقد ذهبت إلى الجامعة لعلي ألقاه هناك على ذلك المقعد حيث لقائه الأول ولكني لم أجده!

- لو تألم الإنسان من ذكرى، لا يلجأ إليها مجدداً، وكأنك تقول من يخاف النار يحرق نفسه، أو من يخشى الظلام يدخل في أعماقه!

- ما قصدك لم أفهم؟

- حاول إمران الابتعاد من حزنه، وأنت بحثت حيث بدأ الحزن؟

بينما يشحذ ذهنه قال:

- كيف تعرف أن حزنه بدأ من المقعد؟ هل تعرف ما حدث لآيلا؟

- نعم أنا أعلم كل شيء فقد كنت أراقبه، وحان الوقت لأخبره.

- ولمَ راقبته؟

- لأن إمران هو الحل الوحيد لهذه المشكلة.

- لأي مشكلة لم تتحدث بهذا الغموض؟

- لأنك لن تفهم، دعنا ندخل الحديقة فإنه هناك بكل تأكيد.

- أتسخر مني؟ هو في حديقة شبه مهجورة لثلاثة أيام!

مضى الاثنان إلى البحيرة الصغيرة، ليرى عمر إمران أخيراً لم يكن يصدق عينيه إلا أنه كان هناك فعلاً.

كان يجلس طيلة الأيام السابقة أمام تلك البحيرة، ينتظر غروب الشمس، فقد كانت دفء تلك الصورة تزيل الهموم من قلبه، كان يرمي بالأحجار إلى قعر البحيرة وكأنه يرمي أسراره بها لتهبط إلى القاع وتبقى هناك حية في المياه.

ينادي عمر بصوته الخشن، حتى إن صوته الذي كرهه إمران طوال حياته، رعش قلبه في تلك اللحظة، ليلتفت ويحدق في هيئته من بعيد.

اقترب منه عمر وقال فور اقترابه:

- لم فعلت كل هذا بنا؟

لم يرد إمران عليه بل عاد إلى رمي الصخور:

- أتعلم كم ذرفت أمك من الدموع عليك؟

رد إمران بعجز كبير:

- كنتُ سأعود الليلة.. عند الغروب.

جلس فيهار بجانبه ونظر إلى عمر وقال:

- عد إلى المنزل وأخبر والديه بأنه سيعود الليلة، لدي حديث يجب عليه قوله.

- لن أذهب إلى أي مكان بدونه..

يتدخل إمران فوراً:

- أذهب، سألحق بك ... لا تخف سأعود.

- حسناً، سأذهب وإن لم تعد قبل الغروب سأعود إليك..

راح عمر يسيرُ بعيداً، بعد دقائق تحدث فيهار:

- إنها حيّة كالحياة، تتحرك بهدوء...

- ما هي؟

- البحيرة، لم اخترت هذا المكان؟

- لا أعلم، ربما هي الوحيدة التي تمتص أوجاعي..

- كان جدك يحب هذه البحيرة، يجلس لساعات أمامها دون ملل.

يبتسم إمران رغم أوجاعه ويقول ساخراً:

- أتقصد المختل الذي قتل خالتي وانتحر؟

- لم يكن مُختلاً، ربما هو الوحيد الذي كان عاقلاً بيننا..

- عاقل! كم أنت مضحك يا فيهار... إنه صديقك لستُ مستغرباً من كلامك هذا.

- كان يعلم أن هذا اليوم سيأتي..

- أي يوم!

- قبل انتحاره بساعات قليلة، كنّا نجلس هنا وأخبرني بانتحاره..
ليقص إمران حديثه بجنون:
- كيف تركته ينتحر إذاً؟ ولماذا لم تمنعه.. كيف تركته يقتل خالتي؟
سعل فيهار بقوة كبيرة وكأنه سيرمي بأحشائه خارجاً:
- هل أنت بخير؟
- لا عليك، مجرد مرض عابر..
- عليك العافية، لِمَ لمْ تمنعه؟
- أتيت اليوم لأخبرك ما حدث ولِمَ حدث، الموت يقترب لأخذ أنفاسي كما ترى..
- ماذا تقصد؟
- جدك تلاعب مع الموت، حاول المحافظة على حياة "إتروسا"، لذلك لم أمنعه..
- إتروسا!
- خالتك، كان اسمها إتروسا، حاول مراراً أن يفك تلك الأحجية ولكنه فشل، لذلك قرر الانتحار للمحافظة على حياة إتروسا.
ضحك بجنون وقال ساخراً:
- عن أي خرافات تتحدث، أرجوك ليس لدي وقت لسماع ترهاتك، سمعت ما يكفي ولا داعي أن تبرر فعلته.. إذا لم تجب بصدق سأذهب إذاً.

نهض إمران ومشى بضع أمتار، ليستوقفه فيهار:

- إنها ليست خرافات، إنها حقيقة ألمْ تفكر كيف مات أرمس العجوز، وجدة عمر وحتى آيلا لو كنت تعرف قبل موتها، لقتلتها بنفسك..

عاد إمران إليه غاضباً وأمسك بقوة الوشاح الذي كان يرتديه فيهار حول عنقه، وكأنه يخرج الوحش البري الذي تغذى على آلامه طيلة السنوات الماضية وقال:

- لو ذكرت اسمها مجدداً سأخنقك حتى تموت...

- لقد عشت ما يكفي من عمري، اقتلني لو أردت ذلك...

شدّ الوشاح بقوة مجدداً وأفلته:

- لست بقاتل، ماذا تريد مني ولم تُغضبُني دوماً؟

سعل فيهار بقوة مجدداً:

- كنتُ أخبرك الحقيقة فعلاً..

انفعل إمران مجدداً وبدأ بالصراخ في وجهه:

- أي حقيقة! حقيقة حفاظ جدي على حياة خالتي، أم حقيقة أن أقتل آيلا بيدي، ماذا قصدت بكلامك عن آيلا؟ وكيف تجرأت؟

- اهدأ أرجوك، أنا أعتذر لقد انفعلت لتسمعني.

- لن أهدأ، وأخبرني ماذا قصدت!

- قصدت الأحجية التي تقتل البشر في هذهِ المدينة..

- الأحجية... الأحجية... كفاكَ حديثاً عن الأحجية مثل الأطفال، أخبرني ماذا تريد مني ولم لاحقتني لم أعد أصبر عليك أكثر من ذلك.

- أنا هنا لأخبرك كل شيء، ولكن إذا لم تهدأ لن أنطق بحرف.

- حسناً، تكلم..

- سأخبرك كيف أنقذ جدك حياة إتروسا؛ عندما بلغت إتروسا عشر أعوام، صدمتها سيارة مسرعة على الطريق، وأسعفها جدك إلى المشفى..

- وما علاقة الحادثة بقتلها؟

- اصبر قليلاً لتعرف السبب، بعد نقلها إلى المشفى، أدخلها الطبيب فوراً إلى غرفة الجراحة مع رجل عجوز فارق الحياة عند وصولها، أُجريت لها عدة عمليات جراحية بنفس الأدوات المستعملة لذلك العجوز للعجلة، فقد كانت حالتها صعبة لدرجة لو عقم الطبيب الأدوات الجراحية كانت ستموت فوراً..

كان إمران يمعن النظر إليه وهو يسرد تلك القصة، فهذهِ أول مرّة التي يسمع بها تاريخ عائلته ليكمل فيهار:

- بعد نجاح العملية، اكتشف الطبيب مصادفةً أن العجوز كان حاملاً لمرض خبيث في الدماء، وانتقل إلى إتروسا وكان لديها عامٌ واحد لتعيش فيه..

- عام واحد؟

- نعم، عندما أخبرني جدك كنا نجلس هنا، وكان يجهش بالبكاء مثل طفل صغير، جدك كان طيباً يا إمران ولم يكن لديه خيار إلا أن يقتلها بعد عام واحد، لتعيش حياتها كاملةً في المستقبل.

- هل جننت؟ كيف يقتلها لتعيش في المستقبل؟

- هذا ما أحاول دوماً أن أقول لك، إنها الأحجية..

رد باستهزاء:

- ها قد عدنا مجدداً..

- إنها الحقيقة، هناك أحجية تُعيد البشر بعد موتهم إلى الحياة.

سخر إمران من حديثه:

- أنا أيضاً لدي مفكرة في المنزل ترى من خلالها مستقبلك وأطفالك، وتستطيع من خلالها السفر عبر الزمن لو أردت.

- لم لا تصدقني؟

- للوهلة الأولى ظننتك حكيماً، أمّا الآن فتأكدت من جنونك اللانهائي، أخبرني كيف تجرأت وقلت لو عرفت لقتلت آيلا بيدي؟

- الجنون هو ما فعله أجدادك في الماضي، أمّا عن قتلك لآيلا فأنا أعتذر.

- جيد أنك اعتذرت! يبدو أنك لست واعياً لما قلته الآن يجب عليّ الذهاب..

- قبل ذهابك، خذ هذهِ الصورة.

وضع فيهار يده في جيبه وناوله صورة قديمة، لشبّان وشابات يجلسون بترتيبٍ جميل في فناء منتظرين التقاط الصورة وخلفهم بناء ضخم بنمطٍ حديث.

كان عددهم حوالي خمسين شخصاً ومن بينهم شاب يمتلك لحية خفيفة وفتاة تلبسُ فستاناً أنيقاً بداخل دائرة حمراء رُسمت بيد فيهار لتحديدهما:

- ما هذه الصورة، ومن هذان؟

- انظر إلى خلف الصورة.

- مكتوب هنا تاريخ الصورة ١٨٨٠ أي في هذهِ السنة، ومكان التقاطها باللغة الإنكليزية "Germany" أي ألمانيا باللغة العربية.

- سافرت إلى ألمانيا قبل أشهر وأحضرت هذه الصورة من هناك؛ هذهِ الصورة التُقطت بعد الاجتماع الذي عقدته بلدية المدينة في ألمانيا لشبان وشابات بلغوا التاسعة عشر، في كل عام لديهم اجتماع مشابه، ولحسن حظنا في كل عام صورة تُعلق في إحدى أحجار البناء.

- وما علاقتي بهذا؟

- اجلس على العشب مجدداً وتمعن في وجه هذهِ الشابة هل تشبهُ أحداً تعرفه؟

جلس وبدأ بالتركيز على وجه الفتاة:

- نعم، أمي تمتلك صورة لها في سن التاسعة عشر وهذهِ الشابة تشبهها بشكل كبير، لم تسأل؟

- لأن هذهِ الفتاة هي خالتك إتروسا توأم والدتك، والآخر جدك وصديقي روهان.

هيمنَ عليه الجنون:

- هل جننت؟

- لا يا بُني.. لم تنفعل بسرعة، استمع إليّ وعند انتهائي احكم بنفسك.

- لا تناديني بِبُني أنا لست ابنك...

- حسناً يا إمران، إنها أحجية الموت، تعود بالبشر إلى الحياة كما قلت لك، ويجب علينا إيقافها بطريقة ما.

- كفاك جنوناً.. هل تخبرني إني أكبر جدي بعام كامل!

يضع فيهار يده على أكتافه ليهدأ:

- أعلم أن الصدمة شديدة عليك، ولكنها الحقيقة.

- أعطني دليلاً أًصدقك؟

- لا أملك دليلاً غير هذه الصورة والقَبْو الذي تحت منزلك القديم.

- القَبْو!

- في منزلك القديم وخلف غرفتك هناك ممر يؤدي إلى ذلك القَبْو.

- وكيف تعرف تفاصيل منزلنا القديم؟

- لأني كنتُ أسكن به وأعرف المخطط كاملاً والأحجية هناك.

- توقف... صنعت الكثير من الأسئلة في عقلي.

- اجلس ودعني أجيبك على كل سؤال.

جلس إمران أمامه شارداً، وردد الأسئلة التي في ذهنه:

- ما هي الأحجية، وكيف تعيد البشر إلى الحياة، وكيف أصدق كلامك هذا!

- حسنا، دعني أسرد عليك منذُ البداية.

- إذا قل لم أنت صامت؟

أدخل يده الأيسر إلى جيبه وأخرج منها مُفكرة صغيرة وقديمة، ثم ناول لإمران بينما كانت يده ترتجف بقوة:

- ما هذهِ المفكرة؟

- ذاكرتي ضعيفة، لذا كتبت جميع التفاصيل هنا، افتح رجاءً على الصفحة التي تحمل أسم روهان جدك.

قلب إمران الصفحات ليجد الكثير من الأسماء حتى وصل إلى صفحة روهان:

- روهان تاريخ الميلاد "١٧٩٣ القامشلي"، تاريخ الوفاة "١٨٥١"، تاريخ الميلاد مجدداً "١٨٦١ أوزلار" لم أفهم!

- ستفهم لاحقاً، ولد جدك روهان في هذهِ المدينة عام ١٧٩٣ وجدك أسفر عام ١٧٩٤ وأنا كنت بعمر روهان أي ولدت في عام ١٧٩٣ السابع والعشرين من إبريل في ألمانيا ثم انتقلنا إلى هنا.

ثار إمران عليه:

- ولم تخبرني التواريخ؟

- تواريخ الميلاد هي شيء أساسي يعتمد عليه الموت في لعبته، يجب أن تكتب جميع التفاصيل الصغيرة حتى تفهم الأحجية، فمن دون التواريخ لن تستفيد بشيء.

- ولم قد أحتاج إلى التواريخ؟

- لتفهم عقلية الموت.

- عقلية الموت، الأحجية، ولادة ما بعد الموت...

- كنتُ أسخر مثلك عندما علمت بأمرها، ولكني الآن أعرف جيداً كيف يلعب الموت.

- وكيف يلعب هذا الموت؟

- تحملنّي قليلاً واستمع إليّ بدون سخرية، فأنا أكره الوقاحة؛ تعرفنا إلى بعضنا في عام ١٨٠٧ في الميتم، كنا أنا وروهان نبلغ من العمر ١٤ عاماً لذلك كنّا في نفس الغرفة أمّا أسفر فقد كان بالغرفة المجاورة، غرفة الثلاثة عشر عاما.

- إذا هكذا تعرف جداي على بعضهما! ولكن كيف وصل بهم الحال إلى الميتم؟ وأنت قلت لي إنك انتقلت إلى هنا؟

- بعد انتقالنا من ألمانيا إلى هنا توفي والدي بنوبة قلبية وبقيت بدون أحد، أمّا أسفر فلم يكن يعرف عائلته، وجدك لديه قصة أخرى سأخبرك بعد قليل.

بدأ إمران بسماع قصة جده وكأنها حكاية لا يتمنى أن تنتهي، أمّا فيهار فقد كان يستمر بالسرد.

- كنّا ثلاث أرواح في جسدٍ واحد، نأكل سوياً ونشرب سوياً، حياتنا كانت مرتبطة حتى أصبح عمرنا أنا وروهان ١٨ عاماً، لتخبرنا إدارة الميتم بأموال روهان الذي ورثه عن أبيه، فله حق التصرف بها الآن فقد أصبح بالغاً بنظر الدولة، ومن الميراث كان المقهى وذلك المنزل.

- إذا المقهى والمنزل لم يكن لجدي روهان بل كان لأبيه!

- هذا صحيح، فلم يكن يملك روهان من المال إلا رماده، بعد أن أخذ روهان ذلك المقهى اقترح علينا أن نعمل بها نحن الثلاثة وبالفعل وافقنا على الفكرة، بقينا عاما آخر حتى أصبح أسفر بالغاً يستطيع ترك الميتم بسهولة، خرجنا سوياً من المتيم وأخذنا ذلك المنزل مأوى لنا، والمقهى مكان عملنا، حتى صار المقهى مشهوراً في ذلك الوقت.

- رغم كل ما فعله، إلا أن مشاركته بأمواله معكما كان عملاً نبيلاً.

- ما زلت غاضباً منه! بعدما أنتهي ستغفر له..

- لن أغفر له حتى لو بررت فعلته..

تجاهل فيهار غضب إمران وأكمل:

- في عام ١٨١٨، أي بعد أن بلغ روهان ٢٥ عاماً، قرر هو وأسفر الزواج في نفس اليوم لأنهما كانا يحبان فتاتين في ذلك الوقت، تزوج روهان من أونارسا، وتزوج أسفر من رافا، وبعد عشرين عاماً أي في

سنة ١٨٣٨ أنجبت أونارسا طفلاً وحيداً وسمته ليبراف أي والدك وتوفت بعد الولادة.

- كيف ماتت جدتي؟

- بحمى قوية قتلتها بعد اسبوعين، أنجبت رافا أيضاً طفلتان توأمتان في عام ١٨٤٠ غيثار والدتك، وإتروسا، توفيت رافا إثر الإنجاب، وبعد أشهر قليلة توفي أسفر لحزنه الشديد فقد أهمل حياته وصحته، لم ترَ عيني بمثل الحب الذي أحبه أسفر من رافا.

- فهمت الآن لِمَ لمْ يخبرني والداي تاريخ العائلة.

- حاولوا الحفاظ على تاريخ الموت مُخبأ وربما هم على حق.

- ولكن من حقي أن أعرف من هم جداي أو أسماءهم على الأقل.

- الموت تاريخ خفي، وإن تناقل تاريخ الموت ستصبح مصيبة، أخبرني هل أنت سعيد بسماعك كل هذا؟

- بالتأكيد لا.

- إذاً والداك كانا حريصين على سعادتك.

- ربما أنت محق، أكمل لي القصة.

- بعد موت أونارسا وأسفر تكفل جدك روهان بتربية الأطفال عنده في المنزل.

- لذلك تزوج والداي من بعضهما؟

- نعم، في عام ١٨٥١ بعدما قرر جدك الانتحار، ترك روهان أبيك وأمك في منزل عائلة غنية، وكتب في وصيته ضرورة زواج أبيك من أمك.

- ولم ترك والدي ووالدتي في منزل عائلة أخرى؟

- لأن والدتك وخالتك كانتا في عمر الحادي عشر أمّا والدك كان في الثالثة عشر، والقانون يحتاج إلى كفيل حتى يبلغا السن القانوني للتصرف بأموال جدك.

- كيف حكم جدي على شخصين بالزواج لأخذ ميراثه، وكأنه يقول لأبي إمّا أن تتزوج من غيثار وإلا لن تحصل على مالي!

- ليس هذا ما قصده، بل قصد ألا يستحوذ أي غريب على المنزل، وبالفعل بعدما بلغ ليبراف سن العشرين تزوج من غيثار في عام ١٨٥٨ وأنجباك بعد عامين أي١٨٦٠ ثم استوليّ أبوك على المنزل الذي كنت تسكن به.

- والمقهى؟

- هذهِ العائلة التي حدثتك عنها، هي عائلة صاحب المقهى الآن، فقد احتال على والديك ليأخذ المقهى منهما.

- كيف حصل هذا؟

- لقد أبصم والدك على بيع المقهى دون أن يعرف، فقد كان صغيراً؟

غضب إمران وتغيرت ملامحه بسرعة:

- يا إلهي... أود قتل ذلك المتعجرف الآن.

- اهدأ قليلاً، من الجيد أن جدك منع بيع المنزل.

- فعلاً، لم نستطيع التصرف بالمنزل عندما احتجنا إلى بعض المال.. وإلا لراح هو أيضا بالاحتيال. هل تعرف لم منع بيعه؟

- لكي لا يحصل أي شخص على الأحجية المُخبأة في القبْو.

يتساءل بعجلة كبيرة:

- هل ما زالت الأحجية هناك؟

- نعم، لم تسأل؟

ينهض إمران متحمساً:

- يجب أن أرى الأحجية بنفسي، فما زلت لا أصدق أي شيء تقوله عنها..

- لن تستفيد بشيء، فالأحجية كتابٌ قديم مكتوب باللغة الفرعونية القديمة ورموز غريبة لن تفهم منها إطلاقاً..

- كيف تأكدت إنها فرعونية؟

- توقع جدك ذلك، الشيء الوحيد المكتوب باللغة العربية والألمانية هي آخر صفحة ومغلف الكتاب.

جلس إمران مجدداً وقال:

- أخبرني ماذا يوجد في آخر صفحة والمغلف.

- لا شيء مهم، تاريخ الأحجية وكيف صُنعت، وبعض القواعد.

- كل هذا وليس مهماً؟ اشرح لي كيف تعمل هذهِ الأحجية والقواعد وكل شيء.

- الأحجية تعيد البشر إلى الحياة بعد عشر سنوات من موتهم، وتحفظ تاريخ الميلاد أي تاريخ الموت في الزمن السابق.

- لم أفهم! كيف تعيد بعد عشر سنوات؟ وما قصدك بالزمن السابق؟

- أي عندما تموت اليوم، ستلد مجدداً في مدينة أوزلار الألمانية بعد عشر سنوات من تاريخ موتك.. وإذا مُت هناك ستلد هنا بعد عشر سنوات من تاريخ موتك، أي بمعنى أخر تاريخ موتك هناك بعد عشر سنوات هو تاريخ ميلادك هُنا وستسمر سلسلة الموت.

- يا إلهي لم عليّ أن أًصدقك؟

- هذهِ هي الحقيقة، يجب أن يتوقف غباء لوكار ويجب عليك معرفة كل شيء قبل موتي، أنا الوحيد الذي يعرف كل ما يجري في هذهِ المدينة.

- لوكار!

- لقد أتعبتني، اصغ إلي واصبر سأشرح لك كل شيء.

- وأنا أيضاً تعبت من سؤالك، أريد فعلاً معرفة كلّ شيء وبسرعة عقلي لم يعد يتحمل كل هذا.

- لو كنتُ مكانك لسألت مثلك، ولكن اصبر عليّ قليلاً.

- حسنا، ابدأ من حيث شئت.

- افتح المفكرة على صفحة لوكار وذكرني بالتاريخ.

فتح إمران الصفحة وبدأ بذكر جميع التواريخ المكتوبة هناك ليبدأ فيهار بسرد القصة وتاريخ الأحجية:

- قبل مئة وأربعة وخمسين عاماً في مثل هذا اليوم أي ٢٧- ٠٤- ١٧٢٦ ولد جد جدك لوكار في مدينة أوزلار الألمانية وانتقل إلى هنا في عام ١٧٦٢ أي عندما كان عمره ٣٦ عاماً.

- ولمَ انتقل إلى هنا؟

- ليشتري منزلاً ضخماً ويفعل الأحجية فيها، ويلد كل مرّة يموت بها مجدداً حتى تنتهي الأحجية.

- لا أصدق أني أسمع هذا الحديث، أكمل.

- تزوج لوكار من هامسارا بعد عام من وصوله أي في عام ١٧٦٣ ولم تنجب هامسارا أطفالا طيلة تلك السنوات حتى أنجبت طفلاً وحيداً بعد مرور خمس سنوات أي في عام ١٧٦٨ وسمّته ألكس ثم ماتت هامسارا في يوم مولدها بعد بلوغها ٢٩ عاماً.

- في يوم مولدها! إذا الأحجية فعلت هذا؟

- لا علاقة الاحجية بالموت في المرّة الأولى، مات لوكار نتيجة حادثة سير عام ١٧٨٣، ليتزوج ألكس في سن الرابع والعشرين أي في عام ١٧٩٢، ثم أنجب ألكس روهان بعد عام واحد أي تاريخ مولد جدك ١٧٩٣ هذا كل ما أعرفه عن تاريخ الأحجية.

- كيف عرفت كل هذا؟

- هو من كتب تاريخ ميلاده وقصة حياته وقواعد الأحجية وحتى موته في الكتاب.

- يا إلهي.. كيف يعرف بموته؟

- هذا السؤال سألته طيلة الستين عاماً عندما علمنا بأمر الأحجية لأول مرة، لم أصدق مثلك ولكن بعد سنوات طويلة اكتشفنا أنها حقيقة، واعتقد أنه وضع نهاية لموته.. أي موته ربما يكون انتحارا.

- وجدي صدق هذا الكلام؟

- نعم لذلك أنتحر، للأحجية أربع عشرة قاعدة سأشرح لك كل واحدة لتفهم لم فعل هذا، افتح المفكرة على الصفحة الأخيرة واقرأ القاعدة الأولى، بدأ إمران بقلب الصفحات مثلما يقلب الخبز بيده ليبرد قليلاً حتى وصل إلى الصفحة وقرأ القاعدة الأولى "يولد الليمو والكاينا بعد موته بعشر سنوات في المدينة المعاكسة لموته، ويتكرر طريقة الموت والتاريخ والوقت"، قال بفضول:

- ما هو الليمو والكاينا؟ وما المقصود من القاعدة؟

- الليمو اسم يُطلق على كل من يعرف بوجود الأحجية وقوانينها مثلي ومثل جدك ومثلك عندما ننتهي من الحديث وتفهم جميع القواعد، أمّا الكاينا ستعرف لاحقاً، وعن القاعدة أخبرتك سابقاً عندما تموت اليوم ستلد مُجدداً بعد عشر سنوات من تاريخ موتك في مدينة المعاكسة أي "أوزلار".

- وماذا يعني تكرار الموت والتاريخ؟
- سأقول لك مثالاً، ولد طفلٌ ما في ٠١- ٠١- ١٨٠٠ ومات عند بلوغه الخامس عشر أي في عام ٠١- ٠١- ١٨١٥ وسبب الموت كان الغرق في هذه البحيرة التي أمامك، سيلد مجدداً بعد عشر سنوات في أوزلار أي
عام ٠١- ٠١- ١٨٢٥ وعند بلوغه الخامس عشر مجدداً ٠١- ٠١- ١٨٤٠ سيموت غرقاً في مدينة أوزلار، هذا ما تعنيه القاعدة تكرار طريقة الموت وتاريخ الموت وتاريخ الولادة وحتى الساعة والدقيقة.
- يا إلهي وسيتكرر مجدداً بعد ولادته هنا ومجدداً بعد موته ولن يتوقف موته وولادته حتى تتوقف الأحجية، وكأنها آلة تعمل لتحصي الأرواح!
- نعم إنها بالفعل آلة قتل بشرية.
- وأين يبقى الشخص في العشر سنوات بين الولادة والموت؟
- لا أعلم ولكن الموت والوقت مرتبطان، ربما يبقى عالقاً بينهما.
أستأثر قليلاً:
- هذا يعني أن آيلا ستُقتل مجددا في المشفى!
- اهدأ يا بُني هُناك أمور لا تعرفها عن الأحجية، دعنا نكمل ما بدأناه وسنناقش بهذا الموضوع بعدما ننتهي.
- كيف سأهدأ وأنت تقول إن آيلا ستُقتل مجدداً!
- لم أقل ذلك لو تدخل القدر لن تُقتل مجدداً.

- ماذا تحاول أن تقول؟

- لن تفهم حتى أن تنتهي من جميع القواعد.

هدأ إمران وبدأ يشرد في المياه الراكدة في البحيرة، تحدث فيهار مجدداً:

- لا تقلق كل شيء سيكون على ما يرام دعنا نعد إلى الأحجية هل فهمت القاعدة؟

حدق به إمران وكأنه عينيه تقولان "لم أخبرتني كل هذا" ليعود بالنظر إلى المفكرة ويسأل:

- كنت أفكر بشيء ما ونسيته.

- أعلم أن موت آيلا يُؤثر فيك بشدّة إنه صعب، ولكن ركز على الأحجية الآن عاود القراءة مجدداً ربما تتذكر سؤالك.

قرأ إمران القاعدة مجدداً حتى عاد إلى طبيعته:

- كنت أعلم أن موت جدة عمر وأرمس في يوم ميلادهم ليست مصادفة، أن جميع السكان ضمن الأحجية... حتى أنا وأنت!

- للأسف إنها كذلك.

- ولكن طريقة الموت كانت غريبة بعض الشيء!

- ستعرف لم كانت هكذا سنعود إلى القاعدة هل لديك أي سؤال آخر؟

- نعم، هل يتوقف الأمر على تاريخ الولادة؟

ضاع فيهار بين مفرداته:

- هذهِ أول مرّة لم أفهم منك، أشرح لي ماذا قصدتْ!

- لو ولد شخصٌ في ٠١- ٠١ اليوم الأول والشهر الأول هل يجب أن يموت في يوم مولده؟

- ليست في المرة الأولى، ربما ولد في ٠١- ٠١ ومات في ٠٥- ٠٨ وبعد موته تبدأ الأحجية بالعمل؛ لا علاقة للأحجية بموته في المرّة الأولى، فهي لم تغرقه في البحيرة هو مات غرقاً، الأحجية فقط تُكرر الأحداث بعد موته لأول مرّة أي بالمختصر بعد وضع الأحجية في القبو.

- لقد أدركت الآن لم قلت لي لا علاقة للأحجية بموت في المرة الأولى.

- هذا صحيح، اقرأ القاعدة الثانية.

- "الأحجية مرتبطة بين مدينتين القامشلي وأوزلار ولا مدينة ثالثة لها" ليقول فيهار بعد انتهائه:

- هل تحتاج إلى شرح أم إنك فهمت؟

- ربما تلك القاعدة هي الشيء الوحيد الذي فهمته دون شرح، تقصد بها الولادة والموت بين المدينتين، عجباً لم يسافر..... ما كان اسمه؟

- لوكار!

- نعم ذلك الوحش لوكار، عجباً إنه لم يسافر لمدينة ثالثة وكتب الأحجية بها كما فعل هنا.

- لن يستطيع فعل ذلك، الأحجية خيط رفيع يفصلُ بين الحياة والموت، ولا يوجد ثالث لهما.

- ولكنه يفصل بين الحاضر والماضي والمستقبل!
- يفصلُ فقط بين الماضي والمستقبل الحاضر لا وجود له بين الأزمنة.
- كيف تُنكر الحاضر ونحن به الآن؟
- قُلت "الآن" قبل قولك لأجزاء من الثانية كانَ ماضياً وبعد قولك صار مستقبلاً هل تستطيع أن تحصي الحاضر؟
- ربما لن أستطيع حساب الحاضر ولكنه موجود حتى لو كان ثانية واحدة!
- إن صح التعبير، سيكون أقل من الثانية بكثير.
- عند حديثنا لأول مرة، شعرت أنك حكيم وفطن، وبعض الأحيان تأكدت من جنونك أمّا الآن فلا أعلم من تكون، رغم أنك أغضبتني بشدة سابقاً.
- لم أكن أقصد أن أغضبك، كنت أحاول أن أشرح لك الأحجية في الوقت المناسب.
- دعنا نكمل، مكتوب هنا القاعدة الثالثة "الأحجية تتحكم فقط في أرواح البشر" أتعني لا تعود بالحيوانات إلى الحياة مرّة أخرى؟
- أصبت، اذهب إلى الرابعة.
- "إذا قتل الليمو الكاينا، سيتحتم عليه إنهاء حياته في ذلك اليوم، لتتغير سلسلة الموت لدى الكاينا، وتعود إلى بداية حياة جديدة حتى كتابة تاريخ الموت، أمّا الليمو فسيبقى على السلسلة".

- لم أفهم القاعدة وحتى ماهية الكاينا؟
- الكاينا هو اسم يُطلق على البشر العاديين الذين لا يعلمون بوجود الأحجية ولكنهم ضمنها مثل عمر وخالتك وجميع سكان المدينتين! أمّا عن القاعدة فسأشرح لك؛ جدك هو الليمو وهو من قتل خالتك أي الكاينا بهذا الفعل غير تاريخ موت خالتك بشرط أن ينتحر.
- لم أفهم مُجدداً..
- لو ماتت خالتك في عمر الحادي عشر، كانت ستدخل ضمن سلسلة الحياة والموت وبهذِهِ السلسلة ستموت كلما صار عمرها أحد عشر.
- هذا صحيح.
- والقاعدة تقول لو قتل الليمو الكاينا ستعود الكاينا إلى حياتها، أي لن تموت بعد ولادتها في أوزلار ولن تُقتل في الحادي عشر من عمرها ستبقى حيّة حتى موتها وتعود إلى السلسلة مجدداً! أمّا جدك فهو على السلسلة، فقد انتحر في الماضي سيموت منتحراً مجدداً عندما يحين الوقت.
- ولكن لم انتحر؟
- إذا لم ينتحر لن تعمل القاعدة ولن يدخل في السلسة.
- الآن فهمت، لذلك هي في عمر التاسعة عشر.
- نعم، وربما تموت في سن الثمانين لا أحد يعلم بذلك.

- أوقف جدي عمره لأجل خالتي، ابنة صديقه المفضل، لو كان هذا صحيحاً فمعك الحق بالدفاع عنه.

- قلت لك سابقاً لو عرفت لم فعل، لفهمت موقفه من ذلك.

- ولذلك قلت لي لو كنت أعرف بموت آيلا لقتلتها! فلو قتلتها لعاشت حياتها كاملة ولكني كنت سأوقف عمري في سن العشرين، ولكن كيف سأستطيع قتلها، كيف يمكن للمرء أن يُمزّق قلبه ويتحول إلى قاتل للمساعدة!

- ربما لست بحاجة إلى قتلها، فلو تدخل القدر سيتغير سلسلة موتها.

تساءل بتطلُّع:

- كيف؟

- اقرأ القاعدة الخامسة.

- "يُسجل سلسلة الموت لدى الليمو والكاينا، وتتوقف السلسلة في حالة تدخل القدر من الكاينا بالموت الثالث" إنها تشبه القاعدة السابقة ولكن الاختلاف يكمن في تدخل القدر والموت الثالث!

- هذا صحيح لو تدخل القدر والموت الثالث سيتغير السلسلة لدى الليمو أو الكاينا.

- ما زلت لم أستوعب أشرح لي، كيف تدخل القدر وما هو الموت الثالث؟

- بعدما تموت لأول مرّة وقبل أن تكون ضمن سلسلة الأحجية يكون موتك هو الأول أي الموت الأساسي دون تدخل الأحجية، أمّا بعد دخولك وتكرار الأحداث يكون الثاني حتى لو تكرر الحدث ألف مرّة.

- والموت الثالث!

- موت أحدٌ أخر غيرك.

- لم أفهم.

- أي عندما تسقط من أعلى البناء لأول مرة بعد ولادتك أي موتك الأساسي يكون "الأول" وعند تكرار الحدث في المستقبل من المفترض أن تسقط مجدداً؛ وعندما يحين موعد موتك المعتاد في السلسلة أي موتك الثاني بتكرار الأحداث وقبل أن تسقط بِلحظات يمسكُ بك أحد فيسقط هو ويموت وتعيش أنت، إنقاذه لك هو تدخل القدر وموته هو الموت الثالث من الكاينا.

- لا أصدق ما أسمعه، وما مصيره هو بعد موته؟

- مصيره سرق منك طريقة الموت وأخرجك من السلسلة، ودخل هو بها أي سيسقط كلما يحين الموعد لذلك.

- وعند إخراجي من السلسلة؟

- ستعيش حياتك طبيعياً مثل خالتك.

- إذاً لو أنقذت آيلا وقتلت الطبيب سأخرجها من السلسلة! بهذهِ الحالة سأكون القدر وسيكون هو الموت الثالث.

- لن يكون كذلك فأنت هو الليمو، تستطيع فقط قتلها مثلما فعل جدك بشرط أن تنهي حياتك وإلا لن تستفيد بفعلتك أو تنتظر القدر ليتدخل.

- نسيت أمر القاعدة، هناك سؤال يخطر لي، كيف أعلم متى كان موتي الأول وأين كان؟

- لن تعلم، الذين يعرفون بموتك هم وحدهم من يعلمون إذا مُت سابقاً أو لا.

يشرد إمران قليلاً ليقول فيهار له:

- أنت تفكر ما إذ مُت سابقاً أم لا؟ لا تشغل بالك بهذا الأمر لو كان والدك ضمن السلسلة لا يعني أن تكون بها أيضاً وأنك مُت في حياة سابقة، وربما هو أيضاً لم يدخل سلسلة الموت بعد!

- كيف ذلك؟

-لنفترض أن جدتك كانت ضمن السلسلة في أوزلار، ثم ولدت هنا وأنجبت والدك، هذه الحالة لم يدخل والدك في سلسلة الموت بعد.

- ربما تكون محقاً وربما لا والمشكلة الكبرى هي بتدخل القدر، فهو نادر الحدوث!

- نعم إنه نادر، حدث معي أمرٌ مُشابه، قبل ثلاثين عاماً، عام ١٨٥٠ عندما كان عمري ٥٧ عاماً، قبل عام من انتحار جدك كنتُ أقطع الطريق مشياً إلى الجهة الأخرى ولم أنتبه إلى شاحنة ضخمة وسريعة

تتجه نحوي مباشرةً، لم أستطع أن أتحرك وفجأة دفعني أحدهم من الطريق فمات هو وبقيت حيّاً.

- ما حدث معك يحدث مع الكثيرين ولكن في قانون الأحجية يجب على القدر أن يتدخل في تلك اللحظة التي سجلت بها تاريخ موتك أي الساعة والدقيقة، وهذا نادر الحدوث.. لا أعلم بماذا كان يفكر ذلك الأحمق عندما عمل الأحجية، كل هذا لأجل العيش مرّة أخرى، وإذا لم يتدخل القدر وينقذ آيلا ستموت كل مرة بنفس الشكل!

- احتمالية تدخل آيلا كبير جداً وضعيف جداً، فقد قُتلت في المشفى، إذا صرخت سيُعتقل من يحاول أن يقتلها ولكن القانون الأوربي لا يشنق المتهم بل يسجنه بهذهِ الحالة لن يتغير شيء ولن يكون هناك موت ثالث، أمّا إذا قتلت الشرطة أو أحدهم ذلك الطبيب عندما يحاول قتلها سيتغير كل شيء، أو عندما تقتل مجدداً في أوزلار وتلد هنا وتكبر ويقبض على المجرم سيُشنق، القانون السوري يشنق المجرمين.

بدأت الدموع بالنزول من عينيه، وكأنها تواسيه في حزنه، وقال بصوتٍ مخنوق:

- إنها بكماء...

تفاجأ فيهار بحبه لها وقال:

- هل هي بكماء منذُ الولادة؟

- لا، صارت بكماء بسبب حادثة.

- يجب أن تفرح إذا، سيعود صوتها.

اختفت الحسرة من لسانه:

- ألن تكون بكماء؟

- ستبدأ آيلا بعائلة جديدة أي بدون أي حوادث فلا أعتقد أنها ستتحول إلى بكماء؛ الأحجية تعيد أحداث الموت والولادة ولا علاقة لها بأحداث جانبية مثل إنها تحولت إلى بكماء أو صماء إلا في حالة ولادتها بهذا الشكل، فلو ولدتْ بكماء ستبقى بكماء.

- لِمَ ستبقى بكماء عندا ولادتها؟

- اقرأ القاعدة السادسة.

- حسناً "يولد الليمو والكاينا بعد موته بنفس الهيئة والشكل وجميع التفاصيل الصغيرة بدون تغير أي شيء فيها" نفس الهيئة مثل خالتي ولدت بنفس الشكل والهيئة ولكن التفاصيل!

- التفاصيل تعني لون عينيك، بشرتك، حتى لو كنت تملك ندباً سيظهر عند ولادتك، لذلك لو كانت بكماء منذُ الولادة لصارت بكماء مجدداً.

- والدراسة وطريقة التفكير؟

- طريق التفكير تأتي من العائلة، والدراسة تأتي من الرغبة؛ من المستحيل أن يلد الثعلب بعد موته في عائلة مكونة من الأرانب ويبقى على طباعه! ربما ترى راهباً أو شيخاً مُتعصبا في الدين يولد في عائلة

مُتحررة، وربما تصادف يهودياً تحول إلى مسلماً أو مسيحياً ولا تنسى الفرق الكبير بين هذهِ المدينة وبين مدينة أوزلار في ألمانيا.

- من المستحيل ألا يُصادف أحدهم معارفه؟

- من المستحيل أن يُصادف..

- لو متُ اليوم في عام ١٨٨٠ وولدت بعد عشر سنوات مجدداً في أوزلار عام ١٨٩٠ وعشت عشرين سنة هناك ومت مرّة أخرى في عام١٩١٠ وعدتُ إلى هنا لأولد بعد عشر سنوات مرّة أخرى في عام١٩٢٠ لو أضفت مرة أخرى عمري عليه أي عشرين عاماً يصبح الناتج ١٩٤٠ أي بعد ستين سنة من الآن عندها عمر لن يتذكرني بلا شك سيكون عمره ثمانين عاماً وأنا في العشرين، إذا لم يمت قبل الثمانين!

- هذا ما قصدته، ثم أنك جيد في الحساب، وإنها إحدى المفاتيح التي ستفتح لك أبواب الأحجية.

- إنها ليست بمسألة صعبة، سؤال آخر ماذا عن الذاكرة؟

- اقرأ القاعدة السابعة لتعرف.

- "يتذكر الليمو والكاينا ماضيهما في حالة استرجاع ذاكرته من قِبل أحد المُقربين له من الكاينا بعد بلوغه سن الثامنة عشر".

- أيُعقل هذا؟ إذا لو سافرت إلى ألمانيا واسترجعت ذاكرة آيلا ستتذكرني؟

- لا، يجب أن تكون من الكاينا لتتذكرك، أنت من الليمو الآن.
- ما هذا التعقيد!
- إنها كذلك، فلو كان الليمو يستطيع، لاسترجعت ذاكرة جدك.
- لدي حل واحد إذاً، عمر، فهو من الكاينا.. ولكن هل ستتذكر آيلا تاريخ موتها وكيف ماتت؟
- عمر يستطيع فعل ذلك، وعند استعادة ذاكرتها، ستتذكر جميع التفاصيل تاريخ الموت وكيف ماتت!
- بهذهِ الحالة تستطيع آيلا إنقاذ نفسها بنفسها؟
- لن تستطيع ذلك أيضاً، انظر إلى الثامنة.
- "عندما يتذكر الليمو أو الكاينا ذاكرته قبل موته، سيموت بنفس الشكل الذي مات به سابقاً ولن يُقبل القدر بالموت الثالث في هذهِ الحالة" ماذا لو لم تذهب إلى المشفى في ذلك اليوم؟
- اقرأ التاسعة لتعرف.
- "في حالة عدم تواجد الليمو أو الكاينا في المكان المخصص للموت سيتغير شكل الموت وتبدأ السلسلة بالعمل مجدداً على الشكل الأخير، ولن يستطيع القدر أو الموت الثالث بالتدخل" لو لم تذهب إلى المشفى سيتغير شكل الموت! كيف سيحدث ذلك؟
- حدث سابقاً، وسيحدث مجدداً..
- إلام تُشير بحديثك؟

- إلى موت جدة عمر، قل لي كيف ماتت؟

- أخبرني عمر إنها كانت جالسة على الأرض وكانت تحمل بيدها اليُمنى كأس ماء وبيدها الأخرى شمعة غير مُضاءة، ثم نهضت وماتت بعدها! ذكرت لي موتها من قبل أكنت تقصد إنها كانت ضمن الأحجية؟

- هذا ما قصدته وفهمته الآن، وطريقة موتها تثبت أنها لم تكن في مكان الموت مجدداً؛ كأس الماء دليل على الغرق والشموع دليل على أداة الموت، وموت أرمس أيضاً لم يكن في المكان المناسب لقد سألت عن موته.

- وكيف تعرف هذا؟

- الموت لا يعتمد على الأسباب بل على الطُرق التي يسلب بها الأرواح، سأخبرك تصوري ربما يكون صائباً أو مُخطئاً؛ كانت في حفلة ما، بجانب المياه ربما يكون بركة ماء، أو بحيرة، أو بحر كبير، كانت تلك الحفلة مليئة بالشموع، فعلت شيئا فأحرقت ثيابها وراحت تُطفئ النار بالماء فوقعت وغرقت..

قال إمران بِحيرة شديدة:

- كيف تخيلت هذا؟

- لا أعلم فقط تخيلت هذا ما حدث؛ لا عليك دعني أشرح لك القاعدة، لو غرقت فعلاً في الماضي ولم تكن في المكان المناسب، لن تستطيع

الهروب من الموت، فقد تغيرت طريقة تفكيرها وحملت المياه وماتت، شعرت أنها ستموت لذلك فعلت ذلك..

- وهل تستطيع الأحجية التحكم بالعقل!

- لا ولكن إذا شعرت بأنك ستموت ماذا ستفعل؟

- لا أعلم، ربما أقبّل من أحبهم!

- وربما قد مت في الماضي وأنت تقبل أحدهم...

- عقلي لم يعد يتحمل كل هذا.. عندما تكون آيلا في المنزل ويحين ساعة موتها ستموت بطريقة ما! ولن يستطيع القدر أو الموت الثالث بالتدخل لأنها ليست بالمكان المتعاد، ما قلته صحيح؟

- صحيح.. لن تستطيع إنقاذ آيلا إلا لو قتلتها.

تجاهل إمران حديثه وقرأ القاعدة العاشرة:

- "لو قتل الليمو أو الكاينا نفسه قبل موعد موته، ستتغير سلسلة الموت ويبدأ عند موته الجديد" هذا سؤال قد خطر لي منذُ برهة، ماذا لو انتحر الكاينا قبل موعد موته وهو لا يعرف؟

- ببساطة سيتغير تاريخ موته وطريقة الموت، مثل جدك لم يكن يعرف متى سيموت ولكنه حدد طريقة موته وعمره القاعدة تشبه السابقة قليلاً.

- ولكنه كان الليمو؟

- وأنت الآن من الليمو، لو قتلت نفسك اليوم ستحدد تاريخ موتك في كل فترة زمنية ستعيش بها.

بقي صامتاً دون أن يُنطق بحرف، بعد صمته بحث في مفكرة فيهار كالمجنون، استغرب فيهار منه وقال له:

- عمَ تبحث؟

- لوكار، أين كانت صفحته...

- ولم تبحث عنه؟

- أود التأكد من تاريخ صنع الأحجية، ربما جدة عمر انتحرت... لقد وجدته انتقل إلى هنا عام ١٧٦٢ وصنع الأحجية أي تاريخ صنعها ١٧٦٢! كيف إذاً جدة عمر كانت ضمن الأحجية؟

يتساءل فيهار:

- ماذا تقصد؟

- أقصد جدة عمر ولدت في عام ١٧٩٣ ونحن الآن في عام ١٨٨٠ إذاً عمرها سبعة وثمانون عاماً، كيف يعقل هذا؟

- ما زلتُ لا أفهمك..

- لو أنقصنا عشر سنوات، الوقت بين الوفاة والولادة سيكون العام ١٧٨٣ ولو أنقصنا عمرها الذي عاشته وماتت أي سبعة وثمانون عاماً يصبح الرقم ١٦٩٦ أي قبل صنع الأحجية بستة وستين عاماً؟

- لم أحسب تاريخ جدة عمر مطلقاً، ثم إن تفكيرك ملفت للنظر ولكن ماذا تعني؟

- أعني إن موتها غريب ولم تكن ضمن الأحجية!

- ربما كانت صدفة، أو انتحرت أو حتى تدخل القدر بالموت الثالث؛ وإذا فكرت أن الأحجية وضِعت قبل وِلادة لوكار، فتأكد أن لوكار هو من وضع الأحجية عام ١٧٦٢ قبل هذا التاريخ لا يوجد شيء اسمه الليمو أو الكاينا.

- لم أعد أستطيع التفكير فالمفاجآت كثيرة، سأقرأ القاعد الحادية عشر "عندما يقتل الكاينا أحدٌ من الكاينا، الحدث سيرتبط بينهما إلى الأبد، وسيموت الكاينا القاتل في نفس اليوم " ماذا!

- لا داعي أن تتكلم، إن رائد سيقتل آيلا مجدداً في المستقبل الحدث صار مترابطا بين آيلا ورائد، وبعد قتل رائد لآيلا سيموت في نفس اليوم.

- إذاً موت آيلا كان متكرراً، فقد انتحر رائد بعد قتلها! ولكن ماذا لو جعلنا آيلا من الليمو ودافعت عن نفسها؟

- ستقتل مجدداً.. أنسيت القاعدة لو عادت إليها ذاكرتها لن يتدخل القدر أو الموت الثالث؟

- هذا صحيح، ماذا لو دافعت عن نفسها وهي من الكاينا؟

- لن تستطيع مجدداً فالقاعدة الأولى واضحة "تتكرر طريقة الموت والتاريخ والوقت" إلا في حالة تغير القدر والموت الثالث وأنت تعرف.

- ليست هناك طريقة لتفادي موتها إذاً.

- هذا صحيح، اقرأ القاعدة الثانية عشرة.

- "لو قتل الكاينا الليمو، سيموت الكاينا في نفس اليوم ويدخل إلى السلسلة الصغيرة، وسيخرج الليمو من السلسلة حتى يعود إليها مجدداً"، ماذا تقصد القاعدة بالسلسلة الصغيرة؟

- السلسلة الصغيرة تعني لو قتلك أحداً من الكاينا وأنت من الليمو سيدخل السلسلة الصغيرة أي ستتوقف حياته عند العاشرة، سينتظر عشر سنوات وسيعيش عشر سنوات ويموت في العاشرة.. بلا نهاية، أي سيولدُ طفلاً ويموتُ طفلاً وينتظر عشر سنوات في المنفى وحتى هناك ربما يكون طفلاً.

- هذه عقوبة كل من يقتل أتباع الأحجية، والليمو ماذا سيحل به؟

- كما هو مذكور، سيخرج من السلسلة..

يسعل فيهار بقوة بينما كان إمران شارد الذهن مجدداً، ليسأله:

- بماذا تفكر؟

- لم أعد أفكر بشيء سوى إنقاذ آيلا.. ماذا لو أحرقنا الكتاب هل ستنتهي الأحجية؟

- عليك بالقاعدة الثالثة عشرة.

- " لن تتوقف الأحجية إلا بقتل الموت الأول من الكاينا بفعل الليمو، أو انهاء حياته من الليمو بعد خروجه من سلسلة الموت".

- الموت الأول؟

- الموت الأول هو من صنع الأحجية أي لوكار لو قتله أحد من الليمو ستنتهي الأحجية.

- ولكن القاعدة تقول لو قتل الليمو الكاينا..

يقاطعه:

- لا تكمل، ستتوقف جميع القواعد وتنتهي الأحجية.

- ماذا لو تدخل القدر بينما يكون من الكاينا عندما يحين موعد موته؟

- القاعدة واضحة، سيخرج من السلسلة حتى يُسجل تاريخ موته مجدداً، ولكن لو أنتحر وهو من الليمو ستتوقف الأحجية لأن تلك القاعدة تنطبق فقط على موت الأول.

- وحرق الكتاب بلا فائدة أيضاً، ما هو الحل برأيك؟

- لا شيء باستطاعته وقف الموت إلا لو قتلت الموت نفسه، أي لوكار...

- وكيف سنعرف أين هو الآن؟ ومن يكون؟ كيف شكله؟ جميع التفاصيل مجهولة..

- لذلك سُميت بالأحجية، لديك فقط تاريخ الميلاد وبعض القواعد والأحداث لتعرف مكانه وتقتله.. ومن الجيد أنك شخصٌ ذكي جداً وستعرف من يكون لوكار.

- سأقرأ صفحته مجدداً، ولد لوكار في ٢٧- ٠٤- ١٧٢٦ في مدينة أوزلار وتوفي عام ١٧٨٣ في القامشلي، ولد في يوم مولدي أي اليوم!

- نعم وفي يوم مولدي أيضاً.
- هل هي مصادفة؟
- إنها مصادفة بلا شك فأنا وأنت لا يربطنا شيء سوى تاريخ الميلاد والأحجية..
- لو وِلد في ألمانيا وسافر إلى هنا ثم مات في القامشلي، أين سيولد بعد عشر سنوات؟
- القاعدة واضحة المدينة المعاكسة لموته، أي في ألمانيا.
- حسناً لو قُلنا إنه مات في مدينة "القامشلي" عام ١٧٨٣ عن عمر ٥٧ عاماً، فإنه سيلدْ مُجدداً في مدينة "أوزلار" بعد عشر سنوات أي عام ١٧٩٣ أضف عليها عمره ٥٧ يصبح تاريخ الوفاة ١٨٥٠ في أوزلار، أضف عليها مرّة أخرى عشر سنوات يصبح ٢٧- ٠٤- ١٨٦٠ في القامشلي! في يوم ميلادي.. يا إلهي.. هل صحيح ما قلته؟
- نعم إنه صحيح، ولد في نفس يوم ولادتك، وهو في هذه المدينة وبحثت عنه طيلة عشرين سنة ولكني لم أعرفه، لذلك أخبرتك بأمر الأحجية لتبحث عنه.
- كيف يعقل هذا! كيف سأبحث عنه؟ ربما أكون لوكار ولا أعلم!
- أنا أيضاً لا أعلم كيف ستجده، سأختصر عليك الطريق.. في المفكرة الذي أعطيتها لك قائمة لأكثر من مئة شاب وِلدوا في ٢٧- ٠٤- ١٨٦٠ ومن بينهم أنت... بحثتُ عنهم طيلة عشرين عاماً.

- أكثر من مئة! وأنا من بينهم.. أتمزح معي؟

- هذا هو قدرك يا إمران لتُغلق الأحجية وتنقذ من تحبهم، وكان قدري بالبحث عن الشبّان وأخبرك بأمر الأحجية.. مهمتي ستنتهي اليوم، أمّا أنت فستبدأ من جديد.

- ماذا تقصد؟

- سأرحل اليوم ولن أعود مُجدداً، لتعتمد على نفسك وعلى ذكائك، أنا متيقن أنك ستحل الأحجية وتجده..

- إلى أين سترحل؟

- إلى المجهول لا أعلم أود فقط العيش لساعات دون أن أفكر بالأحجية فهي تسمكت بي منذُ معرفتي لها.

كرر إمران تلك القاعدة وتوقف عند "بعد دخوله إلى سلسلة الموت" ثم بدأت ضحكاته يتعالى السماء:

- كل هذهِ الأعوام وأنت لم تفهم!

يستغرب فيهار:

- ماذا تقصد؟

- قلت لي أنه حدد تاريخ موته..

- هذا ما كان موجوداً في الأحجية، أكمل!

- انتحر بينما كان...

-ولكني لم أقل إنه أنتحر!

- لا شيء يفسر غير ذلك، أنتحر بينما كان من الليمو عندما وضع أحجيته لكي يضمن موته انتحاراً، والأحجية لم تتوقف لأنه لم يكن ضمن السلسلة في ذلك الوقت، وعندما يلد في المدينة المعاكسة سيفقد ذاكرته وبهذهِ الحالة لن يعود إلى الليمو إلا لو تدخل قوة ربانيّة وصادف أحد من أقربائه وهذا مستحيل... حتى بعد موته سيتحول إلى الكاينا ولأنه انتحر فمن المستحيل أن يتدخل القدر بموت الثالث.

يرد ببرودة أعصاب:

- ربما تحليلك صحيح وربما لا.

يستمر إمران في الضحك:

- يا إلهي كم كان ذلك المجنون شديد الذكاء ليتلاعب بنا. ولكني سأكون أذكى منه بكثير عمّا سأفعله:

حدق فيهار به وفي عينيه ألف سؤال وقال:

- ماذا ستفعل؟

- لن أضيع عمري مثلك، سأنقذُ آيلا وسأفكر كيف سأبحث عنه لاحقاً.. أو أوقف تلك الأحجية.

- ولكن كيف ستنقذها؟

- هل سيحدث شيء لو أخبرت أحداً بشأن الأحجية؟

- نعم، بماذا تفكر؟

- الموت يعتمد على الطريقة، وأنا أيضاً سأعتمد على ذكائي، سألعب مع الموت..

يسخر فيهار رغم سُعاله القوي:

- تلعب مع الموت، وكيف ستتغلب على الموت بلعبتك الطفولية هذه؟

- سأتجاهل سخريتك، في اللعبة عدة قواعد سأستغلها جميعها؛ لو قتلتُ آيلا سيتحتم عليّ أن أُنهي حياتي ولن أستفيد بشيء.

- وماذا بعد!

- لو تحولت آيلا إلى الليمو قبل موتها لن يتغير شيء، ولو تركت رائد يقتلها وهي من الليمو لن تقبل ذلك ولن تصدق ذلك، وإذا بقت في مكان آمن ستموت مجدداً، هناك طريقة واحدة.

- لا تعذب نفسك، لن تستطيع خداع الموت أو الهروب منه، فالموت ذكي جداً.

- الموت ليس ذكياً، وجدي كان غبياً مثله..

- ماذا تقصد؟

- سأنتحر اليوم..

يندهش فيهار منه:

- هل جُننت؟

- لم أُجن بعد، سأكتبُ رسالة إلى عمر قبل انتحاري وأشرح له ماذا سيفعل.

- بماذا تفكر؟

- سأنتحر اليوم، وأخبر عمر أن يسافر إلى مدينة أوزلار بعد ثلاثين عاماً ويبحث عني.

- وماذا ستستفيد لو أعاد إليك ذاكرتك ثم إنه سيكون من الليمو لو أخبرته بأمر الأحجية.

- لن يعيد إليّ ذاكرتي، بل سأجعله يحضر معه أحد أصدقائنا ومجرمان في تلك المدينة، وسأشرح له ماذا يفعل بالتفصيل.

أثاره الفضول وقال:

- أكمل!

- سأجعل عمر يبحث عن مجرمٍ مناسب في أوزلار يستحق الإعدام...

- وعندما يحين موعد موتك، سينقذك المجرم فيموت هو!

- هذا تحديداً ما سيحدث.. وبعدما أستعيد ذاكرتي من الكاينا ربما يكون أبي أو أمي، سأبحث عن طريقة لوقف الأحجية.

- وآيلا؟

- سأفعل ذات الشيء معها عندما أستعيد ذاكرتي سأعود إلى القامشلي وأقنع زوجة عمر أو أحد أقربائه أن يسافر معي إلى ألمانيا، وقبل أن يقتل رائد آيلا بعدة دقائق ستعيد زوجة رائد ذاكرته وبهذهِ الحالة سيبقى في صدمة ولن يستطيع قتل آيلا.. وسيموت هو عندما يحين الوقت وسأسترجع ذاكرتها بواسطة أحد من الكاينا مجدداً لتعود إلى طبيعتها.

- تشبه لوكار بذكائك استغليت عدة أشياء ومنها الحدث المرتبط بين آيلا ورائد، وقاعدة الذاكرة فلو تذكر رائد سيموت حتماً، وستتوقف سلسلة موت آيلا "تدخّل القدر من الكاينا بالموت الثالث" القدر والموت الثالث هو رائد، وعند استعادة ذاكرتها بعد توقيت موتها ستعيش حياتها طبيعية..

وأنت ستنجو بفعل المجرم بتدخل القدر وبموته هو، أذهلتني بذكائك... ولكن كيف ستضمن أن عمر سيعيش كل هذهِ المدة؟

- ليس عمر فقط بل والداي أيضاً، هناك عدة أشخاص يستطيعون استعادة ذاكرتي، لأعود إلى الليمو مجدداً وأوقف تلك الأحجية بعدما أعود إلى طبيعتي.

- كيف ستضمن موت المجرم عندما ينقذك! ألا تشعر أنك تخاطر بحياتك؟

- سأشرح لعمر تفاصيل الجريمة التي ستحصل عندما يحين موعد موتي، وبعدما ينقذني المجرم الصديق! يقتله مجرم أخر أستأجره عمر بطلقة نارية. والقاعدة تقول "عندما يقتل الكاينا أحدٌ من الكاينا، الحدث سيرتبط بينهما إلى الأبد، وسيموت الكاينا القاتل في نفس اليوم " أي بمعنى أخر سنتخلص من مُجرمان في وقتٍ واحد.

- ألا تلاحظ أن عمر وهو من الليمو تدخل لينقذك؟

- لا توجد قاعدة تقول، لو قتل الكاينا أحد من الكاينا بتدخل الليمو!!

- لا أعلم ربما تكون على صواب، وهناك شيءٌ آخر، لم ستقتل نفسك؟ سافر إليها عندما يحين الوقت وخذ معك زوجة رائد؟

- لعدة أسباب، سيكون عمرها ٢٧ عاماً أما عمري سيكون ٥٧ عاماً أي بمثابة عمها تقريباً، السبب الثاني لا أضمن متى سأموت، بمعنى آخر لو مت بعد سنوات سيختفي سر الأحجية معي ولن أستطيع إخبار أحد عنها وبهذهِ الحالة لن تُنقذ آيلا وسأبقى ضمن الأحجية وسأضمن حياتي لعشرين سنة.

سعل فيهار مجدداً وقال:

- أحسنتُ بالاختيار، فأنت وحدك وبذكائك تستطيع فك الأحجية.

- لدي سؤالٌ أخير لك.

سعل مجدداً بقوة وكأنه سيرمي بروحه خارجاً وقال بعد أن التقط أنفاسه:

- تفضل

- ما زلت تسعل، لم لا نأخذك إلى المشفى؟

- لا داعي يا بني. ما هو سؤالك؟

- لم راقبتني بين الجميع؟ ولم أخبرتني بأمر الأحجية؟

- أجبتك من قبل "أنك الحجر الوحيد الذي سيسُد سيلان الدماء".

- ولم قلت لي هذا؟

- لأني لو مت، لن يعرف أحد بأمر الأحجية لذلك أخبرتك، ثم أنك من العائلة نفسها.

- وربما لن تموت إلا بعد سنوات عديدة..

- لا يا بُني فأنا مريض كما ترى، سأترك لك المفكرة وجميع المعلومات لديك، سأنتهي اليوم لتبدأ أنت.. عُد إلى منزلك الآن يجب عليّ الذهاب أيضاً.

- حسناً رافقتك السلامة، وأعتذر عما بدر منّي..

امتلأت أعين فيهار بالدموع دون أن تنهمر قطرة واحدة، احتضن إمران بقوة شديدة وقبّل رأسه ليمضي إلى طريق السريع ويلقي بنفسه أمام شاحنة كبيرة حتى مات.

بعد مضي إمران نحو منزله وبعد خروجه من الحديقة فتح المفكرة مجدداً وقلّب الصفحات ليرى القاعدة الرابعة عشر والأخيرة في بداية صفحة جديدة "عندما يبوح الليمو بسر الأحجية للكاينا، يتحتم عليه إنهاء حياته، وإلا سينتهي حياته في ذلك اليوم ويدخل إلى السلسلة الصغيرة" صُعق إمران بعد قراءته وعرف أن فيهار سينتحر اليوم، راح يبحثُ عنه في الحديقة لساعة كاملة، ولكن دون جدوى.

مضى باتجاه منزله القديم ثم حطم الحائط لينزل إلى القبو وتناول الأحجية. كان مفجعٌ بشدّة على فيهار لقراءته القاعدة الأخيرة، سيقتلُ نفسه اليوم، لذلك لم يخبرني عن القاعدة الأخيرة ورحل، فلو لم يقل لي

لمات ومعه سر الأحجية، ولم أكن سأعرف بإمرها. ليتني لم أعرفها، كم كان قوياً، أمّا أنا فلا أعلم حتى هذهِ اللحظة مقدار قوتي هل سأستطيع أخبار عمر والانتحار!

كان متحمساً لإنقاذ آيلا لم يكن يهاب الموت، عندما اقترب وقت التنفيذ بدأ الخوف بامتلاكه، لم يشعر طيلة حياته بمثل هذا الخوف، ولكن حبه كان كفيلاً أن يُكتم أنفاسه.

يصل الآن إلى منزله وكأن هموم الدنيا كلها على أكتافه لتثقل رجليه ومشيته، طرق الباب بهدوء شديد، ليفتح عمر متبسماً احتضنه وأدخله إلى باحة المنزل، التي زينها من قبل، وضع بعض الطاولات والشموع وموسيقا خافتة تنبعث من مكبرات الصوت وقالبا كبيرا من الكعك المحمص وعليها كريمة رقيقة واسمه وميلاده؛ ركضت إليه أمه التي بكت عليه طيلة الأيام، واحتضنته بقوة، وكأنها تصرخ وتقول لن أدعك تتركني مجدداً، لتنهمر بضع قطرات من دموعه، وكأن تلك القطرات تعتذر من والدته، فشعور الانتحار مازال يلاحقه وفكرته الحمقاء ستُنفذ بعد ساعات.

كان الاحتفال جميلاً ومليئا بالحب والعطف، كان الجميع يستمتع بوقته إلا إمران فلم يفكر إلا بسؤالٍ واحد "كيف سأترك هذهِ العائلة وأرحل؟" كان عمر يقلّد الزبائن الذين يواصلون القدوم إلى هناك ويسخر منهم ليضحك الجميع، أمّا إمران فقد كان شارداً حتى تحدث معه عمر:

- لم أنت شارد الذهن؟

يرتبك في الإجابة:

- ماذا.. لا عليك فقط كنت أفكر أن أرتاح قليلاً فأنا مُتعب.

قالت الأم وهي تُطبق الصحون:

- اذهب لتستحم إذاً، فسريرك ينتظرك منذ أيام..

مضى باتجاه غرفته، الجميع كان سعيداً أمّا هو فقد كان يرتجف من الخوف، المئات من الأفكار تؤلم قلبه وعقله.

يدخل عمر إلى الغرفة ليراه شارداً وأمامه ورقة فارغة وقلم حبر:

- أخبرني لم تأخرت اليوم، ثم ماذا ستكتب على هذهِ الورقة؟

- لا أعلم فقد أخذنا الحديث أنا وفيهار.. سأكتب إليك رسالتين وأضعها بين كتابك ويجب عليك قراءتها لوحدك غداً.

قال عمر دون أن يبالي بالأمر ظناً منه إنها رسالة شكر لحفلة اليوم ولكن بطريقة أخرى:

- يا لروحك الرومنسية، لا تتأخر في الكتابة لدينا جامعة غداً.

انتظر إمران غفوة عمر وبدأ بكتابة الرسالة وعيناه مليئة بالدموع لتنهمر مع كلّ كلمة يكتبها.

كتب جميع تفاصيل الأحجية وكيفية عملها وشرح لكل قاعدة بها في رسالة ووضعها أسفل كتاب عمر مع الأحجية نفسها، مرفقة بصورة

خالته وجده بداخل الأحجية وكتب على مغلف الرسالة "اقرأها لوحدك" وبدأ بكتابة رسالته الأخير وما على عمر فعله لينقذه.
"صديقي العزيز عمر، أعلم عندما تقرأ هذهِ الرسالة سيخطر في بالك الكثير من الأسئلة سألتها لنفسي ولم أجد الأجوبة حتى اكتشفت اليوم السر المخفي الذي أشغل بالي منذُ موت جاري أرمس.
أود الاعتذار منك لما سأفعله اليوم ومن عائلتي التي أحبتني طيلة تلك السنوات، أرجوك أن تفهم أسبابي فأنت الوحيد الذي أثق به، وسأعتمد عليك لأنجو في المستقبل، يجب أن تسترجع روحي الذي سأضع مصيره بين يدك.
ربما سأكون أنانياً لأسلب منكم محبتكم لي وأنقذ جميع سكان في كلتا المدينتين والفتاة الوحيدة التي أحببتها آيلا، التي قُتلت على يد ذلك المجرم.
في هذهِ المدينة أحجية تُعيد البشر إلى الحياة بعد عشر سنوات من موتهم بنفس الهيئة والشكل السابق، وهناك بعض القواعد التي تعتمد عليها تلك الأحجية؛ الأحجية والقواعد موضوعة تحت كُتبك الدراسية وفي داخل الأحجية أي الكتاب القديم هناك، صورة لخالتي ولجدي الذي انتحر، شرحت لك جميع التفاصيل في رسالة أخرى هناك، يجب أن تقرأها لوحدك فلو أخبرت أحداً عن تلك الرسالة ستموت أيضاً ولن نستفيد شيئا، تستطيع فقط إخبارهم بالطريقة التي ستنقذني بها لأنك لن تستطيع

التحدث عن الأحجية، اقرأ رسالة التفاصيل ثم عُد إلى هذهِ الرسالة لتفهم الأحجية وما عليك فعله لتنقذني.
سأنتحر اليوم أي في تاريخ ٢٧- ٠٤- ١٨٨٠ الساعة الثانية عشر مساءً، ما عليك فعله هو أن تتعلم اللغة الألمانية طيلة الثلاثين عاماً وتسافر إلى ألمانيا إلى مدينة أوزلار وتبحث عني حتى تجدني في عام ١٩٠٨ عندما أبلغُ الثامنة عشر، تقرب مني دون أن أعرفك وكن صديقاً جيداً ولا تذكر الماضي إطلاقاً.
قبل أن يحين موعد، أي في ٢٧- ٠٤- ١٩١٠ الساعة الحادية عشر يجب عليك أن تكون" أكمل عمر بسرد التفاصيل الدقيقة لتلك الجريمة التي ستحدد مصيره في المستقبل وختم الرسالة.
" أرجوك أن تطبق جميع التعليمات وإلا ستخسرني إلى الأبد، أعلم أنك ستسأل الكثير من الأسئلة، لذلك اقرأ القواعد جيداً فهي وحدها من ستجيب على أسئلتك سامحني مجدداً.. وداعاً أنا بانتظارك
صديقك إمران ".
وضع الرسالة في المغلف وكتب عليها رسالة من صديق إلى صديقه، ليعلق بعدها حبلٌ قوي في سقف الغرفة دون أن يستفيق عمر وشنّق نفسه ...

قواعد الأحجية

١- "يولد الليمو والكاينا بعد موته بعشر سنوات في المدينة المعاكسة لموته، ويتكرر طريقة الموت والتاريخ والوقت"
٢- "الأحجية مرتبطة بين مدينتين القامشلي وأوزلار ولا مدينة ثالثة لها"
٣- "الأحجية تتحكم فقط في أرواح البشر"
٤- "إذا قتل الليمو الكاينا، سيتحتم عليه إنهاء حياته في ذلك اليوم، لتتغير سلسلة الموت لدى الكاينا، وتعود إلى بداية حياة جديدة حتى كتابة تاريخ الموت، أمّا الليمو فسيبقى على السلسلة".
٥- "يُسجل سلسلة الموت لدى الليمو والكاينا، وتتوقف السلسلة في حالة تدخل القدر من الكاينا بالموت الثالث"
٦- "يولد الليمو والكاينا بعد موته بنفس الهيئة والشكل وجميع التفاصيل الصغيرة بدون تغير أي شيء فيها"
٧- "يتذكر الليمو والكاينا ماضيهما في حالة استرجاع ذاكرته من قِبل أحد المُقربين له من الكاينا بعد بلوغه سن الثامنة عشر".
٨- "عندما يتذكر الليمو أو الكاينا ذاكرته قبل موته، سيموت بنفس الشكل الذي مات به سابقاً ولن يُقبل القدر بالموت الثالث في هذهِ الحالة"
٩- " في حالة عدم تواجد الليمو أو الكاينا في المكان المخصص للموت سيتغير شكل الموت وتبدأ السلسلة بالعمل مجدداً على الشكل الأخير، ولن يستطيع القدر أو الموت الثالث بالتدخل"
١٠- "لو قتل الليمو أو الكاينا نفسه قبل موعد موته، ستتغير سلسلة الموت ويبدأ عند موته الجديد"
١١- "عندما يقتل الكاينا أحدٌ من الكاينا، الحدث سيرتبط بينهما إلى الأبد، وسيموت الكاينا القاتل في نفس اليوم "

١٢- "لو قتل الكاينا الليمو، سيموت الكاينا في نفس اليوم ويدخل إلى السلسلة الصغيرة، وسيخرج الليمو من السلسلة حتى يعود إليها مجدداً"

١٣- " لن تتوقف الأحجية إلا بقتل الموت الأول من الكاينا بفعل الليمو، أو انهاء حياته من الليمو بعد خروجه من السلسلة الموت"

١٤- "عندما يبوح الليمو بسر الأحجية للكاينا، يتحتم عليه إنهاء حياته، وإلا سينتهي حياته في ذلك اليوم ويدخل إلى السلسلة الصغيرة"

عزيزي القارئ، نهاية الأحجية موجودة فقط بين ثنايا الأرقام

لوران ليلي

رفع الموت عقيرته في ذلك اليوم، فأبعدته عن عشقهٍ الأبدي الذي كان يبحث عنه كل مرّة في ثنايا عمره التائه ليدفعه حنينه مجددا إلى خوض غمار الحياة باحثا عن قاربه الذي أخذ يتمايل مع تلك الرياح التي بدأت تهب من جديد مؤذنة بقصص لا تنتهي عن قلب طرق باب النسيان، وسبر أغوار الزمن، ليعيد له ترتيبه الأول بعدما اِختلطت الأزمنة والأيام ببعضها، فتاهت خطواته في رحلة العمر المجنونة تلك، وبقي تائها في مهبّ النسيان، يستجدي الزمن ليعيد ائتلافه مع أيامه، وتنتقل الذكريات التي كانت مرة أخرى، فتعود متسلسلة، ويعود هو ليزيل آثار اِختلاط أوراق الساعات مع بعضها، فيبقى اليوم كما هو، ساكنا في مكانه، يرفض الرحيل، أو ليرحل، ليس مشكلة كبيرة لديه.